محمود الشرقاوى

مواقف حاسمة

فى تاريخ محمد بن عبد الله

دار الشعب

مواقف حاسمة

في تاريخ محمد بن عبد الله

محمود الشرقاوي

مواقف حاسمة في تاريخ محمد بن عبد الله

كلمات

فى أخريات القرن السادس الميلادى ، وقبيل أن يغمر نور محمد صلى الله عليه وسلم ارجاء البشرية ، كان العالم فى الشرق والغرب ، فى الشمال والجنوب ، يتعثر فى خطا الرجعية ، ويئن من وطأة الظلم والاستعباد ، ويعكف معظمه على عبادة الأصنام ، ويعبد بعضه النار أو الكوكب السيار .

شعوب بأكملها تستعبدها قلة من الرجال ، قد يلقبون بالأباطرة حينا ، والقياصرة حينا آخر ، وأمم كثيرة تضللها فئة أطلقت على نفسها رجال الدين ، واتخذت من هذا اللقب شعارا تخدع به الجماهير حتى تظل أقنانا تعمل وتكدح من أجل صالح القلة المتحكمة فى مصائرها .

وحروب محتدمة الأوار ، تثار اشباعا لنهمة الغزو والفتح فحسب ، حتى بات العالم على شفا جرف هار ..

بيد أن رحمة الله التى وسعت كل شىء ، قضت أن تهدى هذا العالم وترده الى الحق والى الصراط المستقيم ، فاختارت محمدا العربى ليكون النبى الموحى اليه ، ليرد البشرية الى الأمن والطمأنينة ، والى التراحم والتعاون ، والى الايمان واليقين .

وكانت رسالته من أشق الرسالات وأخطرها ، اذ انبرى محمد يدعو الى الاسلام وسط ظروف متناهية فى صعوبتها وظلامها ..

يقول « جول لابوم » فى المقدمة التى كتبها على فهرست القرآن الكريم المترجم الى اللغة الفرنسية :

« لم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان .

يقول دوزى فى كتابه « تاريخ عرب أسبانيا » كان يوجد على عهد محمـد، فى بلاد العرب ثلاث ديانات الموسوية والعيسوية والوثنية .: فكان اليهود من بين اتباع هذه الأديان اشد النـاس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم .

نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينيـة فى تاريخ العرب الأقدمين ولكن ما وجد منها فمنسوب الى اليهود وحدهم .

أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون . وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يتعذر أن تسود على شعب حى كثير الاستهزاء .

أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، الذين كان لكل قبيلة بل اسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعـالى ويعتبرون تلك الآلهـة شفعاءهم لديه فقـد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولـكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان اذا لم تتحقق أخبارهم بالمغيبات ، أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام ان قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة .

وكان من العرب من كان يعبـد الكواكب وخاصـة الشمس فكنـانة كانت تدين للقمر ، وبنـو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وبنو طى يدعون سـهيلا ، وكان بنو قيس عيـلان يتوجهون للشعرى اليمانية . .

وكان العرب مغرمين بشرب الخمر ، ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقـدر ما تسمح له به وسائله المعيشية . وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه . وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الاسـلام وعده زواجا ممقوتا . . وكان هنالك أفظع من كل ما مر واشـد

معارضة للطبيعة وهو وأد الأهل لبناتهم (أى دفنهم أحياء) .

هذا كله لا يشير الى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ، ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى : والأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلى العدد جدا ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى مللهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية . أما المسيحيون فكانوا يفرون الى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى الامبراطورية الرومانية ولكن لم يكن فى حالهم نور يلفت النظر تألقه ..

فى عهد هذه الأحوال الحالكة وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة جاء محمد ... » .

جاء محمد يدعو الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد كان الخلق الرضى الكريم الذى تخلق به محمد ، والصبر الجميل الذى تحلى به طوال حياته ، والقوة الخارقة فى الاعداد والتنظيم وما كان يمتاز به من بلاغة وفصاحة ، ومنطق قوى سديد ، كل أولئك مكن لرسالته ، وأصل لدعوته ، فآمنت به هذه الملايين من البشر ايمانا عميقا لا يخبو ولا يفتر .

* * *

وهذا الكتاب ليس تأريخا لمحمد الرسول الكريم ، فتاريخه قد بسط بسطا لا يشجع على التكرار .. ولكن هذا الكتاب يصف بعض المواقف الحاسمة فى تاريخ محمد ... ففى بطولته وتضحيته وصبره على الأحداث ، من الصور مايعلم الناس أن حياة الابطال على هذه الارض ليست من النعومة والطراوة بالقدر الذى يظنون ، وأن الدنيا جافة شاقة ، وأن الرجل من يعتمد على نفسه ، ويؤمن

بربه ، ويسير سبيله قدما الى حيث النصر والبناء ، والعمل الصالح للمجتمع الانسانى .

وهذا الكتاب ينقل صورة رائعة من حيـــاة محمد كيف أوذى وعذب فى سبيل الحق والمثل العليا ، وكيف تنكر له قومه ، واعتزموا قتله ، فهاجر الى المدينة لعله يجد فيها ما لم يجده فى بلده وعنـد قومه من التأييد حتى ينشر دعوته ويؤدى رسالته ...

وقد كتب « واشنطن ايرفينج » وهو امريكى كان سفيرا لدولته فى اسبانيا أواخر القرن التاسع عشر كتابا عن سيرة محمد (ص) قال فيه وهو يبحث البواعث التى حملته على دعوته :

اكانت الثروة ؟ لقد أفاده زواجه من خديجـة الغنى ، فظل سنوات قبل الوحى لايبدى رغبة فى زيادة ثروته ، أم كان يطلب المنازل الملحوظة ؟ لقد كانت منزلته عالية فى قومه وكان معروفا بينهم بالفضل والأمانة ، وكان من قريش ومن أكرم فرع فيها ، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان فى أسرته منـذ اجيال ..وكان من حقه ان يتطلع اليها فلما قام يحاول أن يهدم الدين الذى نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعا ، فقد كانت ثروة أهله ومنزلتهم قائمين على هذا الدين ، فهاجمه وجر على نفسه عداوة أهله ، وغضب مواطنيه وسخطهم جميعا .

هل كان هناك فى بداية سيرته النبوية ما يبعث الأمل أو يعوض هذه التضحيات ؟ ان الأمر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذرا متوخيا الكتمان وظل سنوات لا يوفق ، وعلى قدر توسعه فى بث دعوته ، واذاعة رســالته ، كان يشـتد ويعظم ما يلقى من العنت والسخرية والاذى والاضطهاد ، واضطر بعض أهله وأنصاره أن يهاجروا إلى بلاد أخرى ، واحتاج هو نفسه آخر الأمر أن يهاجر الى بلد غير مكة ، فلماذا كان يصبر كل هذه السنوات الطويلة على « دجل » يسلبه كل متاع الدنيا فى سن لا تسمح بأن يبدأ المرء حياته مرة أخرى ؟ .. فما قام بالدعوة الا بعد الأربعين ، وقضى

فى مكة ثلاثة عشر عاما ، وكان تاجرا حسن الحال فهاجر منها فقيرا معدما ، لا يعرف ما كتب الله له فى غيبه من النصر ، ولا يبغى أكثر من أن يبنى مسجدا يعبد فيه ربه ، ولا يرجو الا أن يعبد الله فى سلام . ولما جاءه النصر لم يتكبر ولم يتجبر ، ولم يعتو ، محافظا وهو فى أوج قوته ، على بساطته أيام ضعفه .

وجاءه نصر الله بعد الهجرة ، ولكن الايام لم تجر كلها على صعيد واحد ، واذا كان قد انتصر كثيرا فقد انهزم أحيانا ، فلا النصر ابطره ، ولا الهزيمة أضعفت روحه أو فتت فى عضده .

وكان عليه أن يضع للجماعة الاسلامية فى المدينة القوانين والنظم فى السلم والحرب وهو فيما أعلم الوحيد الذى بلغ الرسالة كلها ، وأتم عمله أجمعه فى حياته ، فأكمل الدين وأسس الدولة ، ووضع القواعد كلها ، ووجه الأمة الجديدة الوجهة التى فيها الخير والصلاح والعز ... وليس لهذا مثيل فى التاريخ ـ قديمه وحديثه ـ وهنا ينبغى ان نذكر مسافة الزمن التى تم فيها كل هذا كانت قصيرة جدا ، وأن دينه كان جديدا ، يخالف كل ما وجد عليه العرب ، وفى هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب عباداتهم وحدها ، بل غير نفوسهم أيضا . ولا شك أن صرف امرىء عن عبادة حجر أو نحوه أهون جدا من صب النفس فى قالب جديد ...

وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهالكين رجالا يعدون فى طليعة أبطال العالم ، وماذا كان هؤلاء جميعا خليقين أن يكونوا لولا محمد ؟ ونعنى بهم أبطال التاريخ الاسلامى من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء .. أكان احد يمكن أن يسمع بهم ؟

وليس من شك أنهم كانوا خلقاء أن يكونوا شيئا مذكورا بين قومهم ، ولكن قومهم أجمعين لم يكونوا شيئا .. وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا اثر لها فى الحياة ، ولايعبأ بها حتى من يجاورها من الامم ؟

ومن هذه العناصر خلق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا ، ونشرت الدين ، وأهدت الى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الانسانى كله ..

وبعد .... فعلى الصفحات القادمة ، سنلتقى بصورة باهرة رائعة من صور البطولة النسادرة ، والتضحية من أجل تحرير الانسان من كل ما يعوق تقدمه واسعاده . وكل ما أرجوه أن يقع هذا الكتاب من القراء الأعزاء الموقع الذى يدفعهم الى المضى فى طريق محمد الرسول الكريم .. طريق الحق والعدل ، طريق المحبة والسلام ..

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

محمود على الشرقاوى

الفصل الأول

أيّام شاقة

كان محمد يستهدف انهاض الانسان ، وازدهار الحياة .

وقد لقي فى سبيل رسالته من الارستقراطية القرشية عنتا وزهقا ، بيد أنه لم يهن ولم يضعف ، بل انبرى لابلاغ رسالته (فكانت ذلك الشهاب السماوى الذى أصاب حطبا يابسا فجعله شعلة من نار) كما قال توماس كارليل فى كتابه « الأبطال » وقد وفق هذا الكاتب فى الوصف حيث قال (وكأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى ما كان يبصر بها فضل ، ولا يرجى منها خير ، فاذا هى بارود سريع الانفجار ، وما هو برمل ميت : واذا هى قد تأججت واشتعلت ثم اتصلت نارها بين غرناطة ودلهى) .

وواجهت الارستقراطية القرشية الخطر على مصيرها ، فخفت بقضها وقضيضها ، لاطفاء هذه الشعلة قبل امتدادها ، وكان فى طليعتها عبد العزى بن عبد المطلب الذى لقبه القرآن الكريم بأبى لهب ، والحكم بن هشام المعروف بأبى جهل وهما من زعماء قريش .

وراحت قريش تتهكم على الرسول الكريم ، وتسخر منه ، وتسأله عن معجزاته التى تثبت رسالته ، فما له لا يحيل الصفا والمروة ذهبا ، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدث عنه مخطوطا من السماء ، ولم لا يحيى الموتى ، ولا يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها ، ولم لا يفجر ينبوعا أعذب من زمزم ماء .

فرد الوحى لجاجهم بما أنزل على محمد من قوله تعالى :

(قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون (1)) .

محمد .. نذير وبشير .. فكيف يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب اليهم الا ما يقبله العقل بل ما يمليه ويحتمه .. وما لهم يطلبون اليه اثبات رسالته بالخوارق ليترددوا بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست الا حجارة أو خشبا مسندة أو أنصابا قائمة فى عرض الصحراء لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا اليها ما يثبت الوهيتها ؟! ولو أنهم طلبوه لظلت خشبا أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها .

وأخذت الارستقراطية القرشية تفكر فى أمر محمد الذى سخر من آلهتها ، وحقر من شأنها ، واستقر الراى على مخاطبة عمه حاميه والمدافع عنه ، ومشى رجال من أشراف قريش الى أبى طالب وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه .

فردهم أبو طالب ردا جميلا ، ومضى محمد يشتد فى الدعوة الى رسالته ، ويزداد لدعوته أعوانا ، واتمرت قريش بمحمد ومشوا الى أبى طالب مرة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان أنهد فتى فى قريش وأجمله ، وطلبوا إليه أن يتخذه ولدا ويسلمهم محمد فأبى ؛ ومضى محمد فى دعوته ، ومضت قريش فى ائتمارها ، ثم ذهبوا الى أبى طالب مرة ثالثة وقالوا له :

---

(1) سورة الاعراف : ١٨٨

ـ يا أبا طالب ، ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وان والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا باسلام ابن أخيه ولا خذلانه .

فماذا يصنع ؟ بعث الى محمد فقص عليه رسالة قريش ثم قال له :

ـ « فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق » .

وأطرق محمد اطراقة وقف ازاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتا ، لا يدرى بعدها ما اتجاهه . فى الكلمة التى تفتر عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم أهو يظل فى الضلال يمد له فيه ، وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخرف الآمن ، أم هو يضىء أمامه نور الحق وتعلن فيه كلمة التوحيد وتتحرر فيه العقول من رق العبودية والقلوب من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الانسانية لتتصل بالسماء . وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، فهو خاذله ومسلمه . وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافا لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة الارستقراطية القرشية الباغية ، اذا لم يبق له دون الحق الذى ينادى الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى ايمانه العميق بالحق عدة .. ليكن .. ان الآخرة خير من الأولى ، وليؤد رسالته وليدع الى ما أمره ربه ، ولخير له ان يموت مؤمنا بالحق الذى أوحى اليه من أن يخذله أو يتردد فيه .. لذلك التفت الى عمه ممتلىء النفس بقوة ارادته وقال له :

ـ يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى

يساري ، على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ـ ما تركتـه .

اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف كذلك مبهوتا مبهورا امام هذه القوة القدسية والارادة السامية فوق الحياة . وقام محمد وقد خنقتـه العبرات مما فاجأه به عمـه وان لم تدر بنفسه خجلة ريب فى الطريق الذى يسلك . ولم تك الا لحظـة اهتز فيها وجود أبى طالب متحيرا بين غضبة قومـه وموقف ابن اخيه حتى نادى محمدا ان أقبل . فلما أقبل قال له :

ـ اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

وافضى ابو طالب الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب بقول محمد وبموقفه ، وطلب اليهم أن يمنعوا محمدا من قريش ؛ فاستجابوا له جميعا الا أبالهب فانه صارحهم العداوة وانضم الى خصومهم عليه (١) .

وجعل الاسلام يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسـه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

وبينما كانت وسائل التعـذيب بالمستضعفين من المسلمين تجرى على قدم وساق ، لا فتور فيها ولا هدنة ، اذا بوسـائل الاغراء تكال الى محمد الرسول الكريم وهذه صورة منها :

كان عتبة بن ربيعة سيدا فى قومه ، قال يوما ، وهو جالس فى نادى قريش ، والرسـول الكريم ، جالس فى المسجـد وحـده ، يا معشر قريش ، الا أقوم الى محمد ، فأكلمـه ، وأعرض عليـه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد

وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب ، ورأوا أصحاب محمد صلوات الله عليه يزيدون ويكثرون فقالوا :

ـ بلى يا أبا الوليد ، قم اليه فكلمه .

فقام اليه عتبة حتى جلس الى محمد (ص) ، فقال :

ـ يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب ، وانك قد اتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك امورا ... تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال الرسول الكريم .

ـ قل يا أبا الوليد أسمع .

قال :

ـ يا ابن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ،حتى تكون أكثرنا مالا .

وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع امرا دونك .

وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا .

وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

حتى اذا فرغ عتبة ، والرسول الكريم ، يستمع منه ، قال :

ـ لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال : فاسمع منى .

قال : افعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون .

وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون .

قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ، فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون .

ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون .. » .

ثم مضى محمد صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة .. أنصت اليها ، والقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه .

ثم انتهى الرسول الى السجدة ، فسجد ، ثم قال :

ــ قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

ــ نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس اليهم قالوا :

ــ ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال :

ــ ورائى انى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هـذا الرجل ، وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

قد يقول قائل انه لو عرض على محمد ، هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل .

وهذا القول يدحضه : ان عتبة كان مفوضا من زعماء قريش ، ويدحضه أيضا الخبر الذي ترويه كتب السيرة :

فقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان ابن حـرب ، والنضر بن الحارث ــ أخو بني عبـد الدار ــ وأبو البختري بن هشام والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وزمعة ابن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله ابن أبي أميـة ، والعاص بن وائل ، وبنيـه ومنبه ابنـا الحجاج السهميان وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

ــ ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا فيه .

فبعثوا اليه ، أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .
فجاءهم الرسول الكريم ، سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه ، وكان عليهم حريصا : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم فقالوا له :

ــ « يا محمد ، انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد

شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا جئته فيما بينا وبينك .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا .

وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا .

وان كان هذا الذى يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا — فربما كان ذلك ، بذلنا لك من أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم محمد صلى الله عليه وسلم :

— « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به ، أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم . ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم .

فان تقبلوا ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

ولما رأت الارستقراطية القرشية الخطر يهدد مصالحها الذاتية ، وأن دعوة محمد الى تحرير الانسان من الأوهام والأباطيل خطر على كيانها ، تآمرت ضد محمد والذين معه ، فكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ولا يقبلوا منهم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله للقتل ، أعنى أنهم اتفقوا وتعاهدوا على مقاطعتهم مقاطعة تامة ، وقد امتدت هذه المقاطعة ثلاث سنين ، بذلت قريش فيها كل ما تستطيع من التشديد على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، حتى أن التجار من غير أهل مكة كانوا اذا قدموا

اليها بالطعام ، حالت قريش بينهم وبين بنى هاشم وبنى عبدالمطلب حتى لا يبيعوهم شيئا من الطعام ..

وقد عانى بنو هاشم وبنو عبد المطلب من ذلك ما هو فوق طاقة البشر ، ولكن الأذى اذا اشتد ولد فى نفوس المنصفين الشفقة والعطف ، فان بعضهم فكر فى نقض هذه الصحيفة الظالمة ، ووضعوا الخطة الكفيلة بنقضها ، حتى يتم لهم ما أرادوا .

وخرج الرسول الكريم ومن معه من الشعب الذى كانوا محصورين فيه . ولم يتأثر محمد بهذا بل مضى يدعو الى رسالته السامية ..

الفصل الثاني

فى الطائف

الحقد الأسود يمور فى قلوب أعداء الحياة الجديدة الطاهرة التى يدعو اليها محمد بن عبد الله . واذا كانت قريش قد جعلت على قلوبها أقفالها ، وأصروا على غيهم ، واستكبروا اسـتكبارا ، فقد عزم على التماس قوم آخرين يكونون اكثر استعدادا لقبول دعوته ، ويستطيع أن يجد فى بلدهم تربة أشد خصبا وصلاحية .

ان الجذوة التى اشتعلت فى قلبه لن تنطفىء .

وتعاليمه السامية لتحرير الانسان من كل قيد لن تموت .

وانطلق الى الطائف .. عله يجـد قلوبا واعيـة ، وأدمغـة متفتحة ، وآذانا صاغية . وهنـاك عمـد الى نفر من ثقيفه ، هم يومئذ سادة ثقيف ، وهم أخوة ثلاثة :

عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحسيب بن عمرو بن عمير ، فجلس اليهم محمد ، فدعاهم الى الاسلام .. ولكنهم ردوا عليـه بغلظة واستهزاء ، فقام من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم :

ـ اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .

فلم يفعلوا ، وأغروا به العبيـد والأجراء الذين يحمل لهم الخلاص ، ويدعوهم الى الحرية !

ان أصدقاء عمه العباس تنكروا له ورفضوه ، مجاملة للاخرين من تجار قريش ، وحرصا على استمرار سيطرتهم على أعنـاق العبيد الأجراء .. علموا أنه يحرم الربا ، ويحض النـاس على

كراهية الخمر ولحم الخنزير .. وكانت أموالهم تتكدس من الربا ، وكانوا يتجارون فى لحم الخنزير والخمر الذى تنتجه الكروم فى الطائف ، وأدركوا أن وجوده بينهم سيغرى الفقراء والضعفاء بأن يطالبوا ما يسميه هو حقهم المعلوم فى أموال الأغنياء .. فنبذوه وأغروا به العبيد والأجراء يسبونه ، ورموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء . وكان اذا أوجعته الحجارة قعد الى الأرض ، فيأخذون بعضديه فيقيمونه ، فاذا مشى رجموه وهم يضحكون ، حتى لقد شج رأسه .

وآوى محمد الى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد الى ظل شجرة من عنب ، فجلس فيه . وابنا ربيعه ينظران اليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن الرسول الكريم رفع رأسه الى السماء ضارعا فى شكاية وألم :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتهجمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى أن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والاخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بالله » .

وطال تحديق ابنى ربيعة به ، فتحركت نفساهما رحمة به واشفاقا عليه من سوء ما لقى ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يدعى عداس ، فقالا له :

خذ قطفا من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى الرسـول الكريم ، ثم قال له : كل ، فلما وضع محمد فيه يده قال : بسم الله ، ثم أكل .. فنظر عداس فى وجهـه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له الرسول : ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس ؟ ومادينك ؟

قال : نصرانى ، وانا رجل من أهل نينوى .(بلد من بلاد العراق على شاطىء دجلة ، وأمامها مدينة الموصل) .

فقال الرسول : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟

قال الرسول : ذاك أخى ، كان نبيا وانا نبى .

فأكب عداس على محمد يقبل راسه ويديه وقدميه .. وعجب ابنا ربيعة لما رأيا وان لم يصرفهما ذلك عن دينهما ولم يمنعهما من التحدث الى عداس حين عاد اليهما يقولان : ياعداس ، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه .

وكأن ما أصاب الرسول من أذى خفف من سخط ثقيف وان لم يغير من جمودهم عن متابعته ، والايمان بما جاء به من دين الحق .

وهذه القصة المؤثرة تدل على الشدة التى كان يعانيها محمـد أثناء عرضه دعوته على بطون الطائف ، ثم تظهر مقدرته الفائقـة حين لم يكن يبالى بعدوان البطون عليه ولا بقوارص الكلم التى كان السفهاء يوجهونها اليه .. بل مضى فى سـبيله يدعو العرب الى الايمان بالله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان نجاحه بطيئا جدا فى ذلك الحين لأن تعاليمه كانت تقوم على ترك عبادة الأصنام وهدم العقيـدة الراسخة فى نفوس العرب « وعلى أن تسلخ هبل واللات والعزى من أعناقها » وكان ذلك فوق ما تهضمه عقولهم .

(١) ابن هشام : جـ ٢ ص ٢٦ .

كان محمد يدعو الناس الى عبادة الله العلى القدير وله من عباد الله درعان : درع فى البيت يزمله ويحتضنه ويبشره ويسرى عنه . ودرع فى الناس يذود عنه : زوجه خديجة وعمه أبو طالب

وقد رحلا عن هذه الدنيا فى عام واحد ، فاشتد حزنه وتلاحقت عليه أنواع الايذاء والكيد ، ونالت منــه قريش ما لم تكن تطمع فى حياتهما .. اعترضه السفهاء ونثروا التراب على رأسه ، وطرحوا سلا الجزور بين كتفيه وهو قائم فى الصلاة ، وخنقوه حتى كاد يموت .

وما كاد يخرج الى الطائف يلتمس المعونة حتى قوبل بأشد مما قوبل به من قومه . فيعود الى مكة وقد تقطعت فى نفســـه وســـائل الاستعانة بالناس فيتجه الى الله وفى هــذا الجو الربانى الخالص يمد الله يده الى رسوله ويضمه اليه ، ويسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فيريه من آياته الكبرى ما يبدد عن نفسه سحائب هذا الجو الارضى الخانق ويضىء له المستقبل بنصرة الحق .. والعدل .. وتحرير الانسان .

الفصل الثالث

الهجرة إلى المدينة

— ١ —

الظلام يلف مكة فى طياته .. والاصنام قائمة فوق بيت الله : شارة التأخر والانحلال . ومحمد رسول الهدى ، يلجأ الى الله العلى القدير يستغيث به ، ويرجوه ، ويلح فى الرجاء ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم رحمة بهم وشفقة عليهم :

ـ لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فهاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ، وكلهم من بطون قريش . وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقيه بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر ابن ابى طالب وامرأته أسماء بنت عميس ، وقد أكرمهم النجاشي وأمنهم على حياتهم ، وأصبحوا فى زغد من العيش .

فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة . وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين الي النجاشي ليخرجهم من بلاده . فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (١) ويقال انه كان معهما معاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة .

(١) ابن هشام : جـ ١ ص ٣٥٦ .

سار عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص الى النجاشى ومعهما الهدايا وطلبا مقابلته ثم قالا له :

« أيها الملك ، انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلم بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » .

فقالت بطارقة النجاشى : أيها الملك ، قومهم أعلم بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم .

وكان النجاشى بعيد النظر ، سديد الرأى ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ، فتقدم جعفر بن أبى طالب ووصف له حالة العرب قبل الاسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ترمى الى ترك الأصنام وعبادة الله الواحد القهار والتخلق بمكارم الأخلاق ، فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟

فقال جعفر : نعم .

قال : فاقرأه على ، فقرأ جعفر عليه صدرا من « سورة مريم » فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أبلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشى : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما .

ولما خرجا قال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غدا عنهم بما استأصل به خضراءهم (١) ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد » .

---

(١) يعنى جماعتهم ومعظمهم .

وطلب مقابلة النجاشي من الغد ، وقال له : « أيها الملك ، انهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم وسلهم عما يقولون فيه » .

فطلب النجاشي المهاجرين مرة أخرى ، فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟

فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول .

فقال النجاشي : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت ، ثم قال : اذهبوا فأنتم شيوم (١) بأرضى من سبكم غرم (أى عاقبناه) ، فانصرفوا . ورجع بعضهم الى مكة قبل هجرة الرسول الى المدينة وأقام بعضهم فى الحبشة الى السنة السابعة للهجرة .

— ٢ —

وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة فى أهل يثرب .. يقول ابن سعد فى الطبقات : « أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمكة ما أقام ، يدعو القبائل الى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة ، بمجنة ، وعكاظ ، ومنى ، أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ، ويشتم ، حتى أراد الله اظهار دينه ، ونصر نبيه ، وانجاز ما وعد ، فساقه الى هذا الحى من الأنصار ، لما أراد الله به من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر لقيهم (٢) الرسول فقال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

---

(١) الشيوم : الآمنون .

(٢) ابن هشام : جـ ٢ ص ٣٧ ، الطبرى جـ ٢ ص ٢٣٤ .

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فلما كلم الرسول أولئك النفر ودعاهم الى الله — وكانوا اذ ذاك متأثرين بما سمعوا من اليهود — قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله انه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه .

فأجابوه بما دعاهم اليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام .

وقالوا له :

— انا قد تركنا قومنا ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

فلما قدموا المدينة الى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر من الرسول ، وذلك بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة ، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة فى تأدية رسالتهم .

وفى الموسم التالى (أى فى السنة الثانية عشرة من البعثة) وافى مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، لقوا الرسول بالعقبة وبايعوه فى تلك الليلة ، وقد سميت تلك البيعة « بيعة العقبة الأولى » .

قال عبادة بن الصامت :

[كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى مكروه ، فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك فأمركم الى الله عز وجل ان شاء غفر ، وان شاء عذب (١)] .

وقد أرسل الرسول مع أهل يثرب مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ، ويؤمهم فى المسجد ، وكان يسمى المقرىء (٢) .

وكان سعد بن معاذ واسيد بن خضير ، شيخى بنى عبد الأشهل فى ذلك الحين ، وقد حدث ذات يوم أن كان مصعب جالسا مع اسعد فى دار بنى ظفر ، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الاسلام بين من دخلوا فيه حديثا ، اذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم ، وقال لأسيد بن خضير :

[لا أبالك ، انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا ، فانه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت ، لكفيتك] . (وكان سعد ابن معاذ ابن خالة أسعد) .

عند ذلك تناول أسيد حربته ، وانطلق الى أسعد ومصعب ، ثم صاح بهما [ما جاء بكما الينا ؟ أتسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا ان كانت لكما فى نفسيكما حاجة] .

فأجاب مصعب فى هدوء : « أولا تجلس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته فكف عنه » .

---

(١) ابن هشام : جـ ٢ ص ٢٣ ؛
(٢) ابن سعد : جـ ٣ ص ٨٢ .

فركز أسيد حربته فى الأرض ، وجلس اليهما يسمع ، ومصعب يشرح له مبادىء الاسلام الأساسية ، ويقرأ بعض آيات من القرآن الكريم ، وصاح أسيد بعد برهة مأخوذا : « كيف تصنعون اذا أردتم ان تدخلوا فى هذا الدين ؟ » .

فأجاب مصعب : « تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » .

فاستجاب اسيد لساعته ، وردد شهادة الاسلام ثم قال : « ان ورائى رجلا » يشير الى سعد بن معاذ « ان اتبعكما ، لم يتخلف عنه احد من قومه ، وسأرسله اليكما الآن » . عند ذلك انصرف ، وما لبث ان جاء سعد بن معاذ نفسه ثائرا غضبا على أسعد لما قدمه لدعاة الاسلام من مؤازرة وتأييد ، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه ، عندئذ رضى أن يصغى الى كلام مصعب ، وسرعان ما أثر فيه ، وحمل الاقناع الى قلبه ، فدخل فى الدين ، وأصبح من المسلمين . ثم رجع الى قومه يلتهب حماسة وقال لهم :

— « يا بنى عبد الأشهل . كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ » .

فقالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة .

فقال سعد : فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل . وسرعان ما أصبحت الرياسة له على الأوس والخزرج جميعا ، وأسلم كثير من أهل يثرب ، حتى لم يبق دار من دورها ، الا فيها مسلمون ومسلمات .

وفى موسم الحج التالى [السنة الثالثة عشرة من البعثة] خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين الذين أسلموا حديثا قاصدين مكة . وقد عزموا أن يدعوا الرسول للهجرة الى

يثرب ، ويبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم . وكان يرافقهم مصعب ابن عمير ، الذى بادر على اثر وصوله لزيارة الرسول الكريم واخبره بما أصابه من توفيق فى نشر الدعوة الى الاسلام . ويقال ان أمه لما سمعت بمقدمه ، بعثت اليه تقول : « يا عاق ، أتقدم بلدا آنا فيه لا تبدأ بى » ؟

فقال : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما سلم على الرسول وأخبره بما أخبره ، ذهب الى أمه فقالت : انك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ؟ . قال : أنا على دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الاسلام ، الذى رضى الله لنفسه ولرسوله .

قالت : ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب ، فقال أفر بدينى أن تفتنونى . فأرادت حبسه ، فقال : لئن حبستنى لأحرصن على قتل من يتعرض لى .

قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكى .

فقال مصعب : يا أمه . انى لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدى أنه لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

قالت : والثواقب (النجوم) لا أدخل فى دينك ، فيزرى بى ، ويضعف عقلى ، ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على دينى .

واجتمع محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، باليثربيين عند العقبة ، وكان العباس أول من تكلم فقال :

ـــ « يا معشر الخزرج ، ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . وقد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم . فان كنتم ترون انكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه ،

فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وأن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن دعوه .

قال اليثربيون وقد سمعوا كلام العباس :

ـــ سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم الرسول ، فتلا القرآن ، ودعا الى الله عز وجل ، ورغب فى الاسلام ، وقال :

ـــ « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم »

قال البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم :

ـــ والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا (١) فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة (٢) ورثناها كابرا عن كابر .

وقبل أن يتم البراء كلامه اعترض أبو الهيثم بن التيهان قائلا :

ـــ يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال ـ أى اليهـــود ـ حبالا (٣) وانا قاطعوها ـ يعنى العهود ـ فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم محمد ثم قال :

ـــ « بل الدم الدم ، والهدم الهدم (٤) .. أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

وهم القوم بالبيعة ، فاعترضهم العباس بن عبادة بن نضـــلة الأنصارى قائلا :

---

(١) أزرنا : بضم الهمزة والزاى وفتح الراء : المراد نساءنا . والعرب تكنى عن المرأة بالازار .

(٢) الحلقة : اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها .

(٣) الحبال : كناية عن العهود .

(٤) الهدم . الهدم : بسكون الدال وفتحها بالفتح معناها القبر ، يعنى اقبر حيث تقبرون . وبالسكون معناها اهدام الدم ويأتى المعنى أيضا مع فتح الدال أى ان طلب دمكم فقد طلب دمى ، وان أهدر دمكم فقد أهدر دمى .

— يا معشر الخزرج ! أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون اذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فدعوه ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم :

— انا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا يا رسول الله ان نحن وفيناك بذلك ؟

ورد عليهم مطمئن القلب راضى النفس قائلا : الجنة .

ومدوا اليه أيديهم ، فبسط يده فبايعوه ، فلما فرغوا من البيعة قال لهم الرسول :

— « اخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبا (١) يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء » .

فاختار القوم تسعة من الخزوج وثلاثة من الأوس . فقال الرسول لهؤلاء النقباء :

— « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى » .

وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : « بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

تم ذلك كله والليل مرخ سدوله فى شعب العقبة فى عزلة من الناس والقوم على ثقة من أنه لا يطلع عليهم الا الله . لكنهم ما كادوا

(١) النقيب : هو عريف القوم وضمينهم .

يتمونه حتى سمعوا صوتا يصيح بقريش : ان محمدا والصباء (١) معه قد اجتمعوا على حربكم . ذلك رجل خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم قليلا اتصل بسمعه ، فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم ، وأن يدخل فى روعهم أن ما بيتوا بليل قد افتضح . بيد أن الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم ، حتى لقد قال العباس بن عبادة للرسول بعد أن سمع هذا المتجسس : « والله الذى بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا » .

فكان جواب الرسول : « لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم » .

فرجعوا الى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح . وفى الصباح جاءت جلة قريش الى اليثربيين فقالوا :

ـــ يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا !! والله انه ما من العرب أحد أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم .

وانبرى المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شىء . أما المسلمون فاعتصموا بالصمت حين رأوا قريشا مالت لتصديق شركائها فى الدين . وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه وأخذت تتحرى علها تقف على جلية الأمر فيه .

واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين ديارهم قبل أن تثق قريش بشىء مما حصل . فلما عرفت أن الخبر حق وصدق ، خرجت تطلب أهل يثرب ، فلم تلحق منهم الا بسعد بن عبادة ، فأخذوه وردوه الى مكة وعذبوه حتى أجاره جبير بن مطعم بن عدى والحارث بن أمية لأنه كان يجير لهما من يخرجون فى تجارتهما الى الشام حين مرورهم بيثرب .

---

(١) جمع صابىء وهو الخارج على دين قومه وجماعته .

أخذ المسلمون يهاجرون سرا الى يثرب ، وهم على ثقة بأن الله معهم ، يؤيدهم بنصره ..

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول ، ولا فى نظر أصحابه ، ركونا إلى الدعة والهدوء ، أو ميلا الى الراحة والسكون ، وانما كانت محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله ، من جبهة أخرى ..

هاجر المسلمون جميعا الى يثرب ، وبقى الرسول بمكة وحده ، وليس معه من أصحابه الا اثنان : أبو بكر الصـــديق وعلى ابن أبى طالب ..

وان هذا الحادث لدليل أكيد على ايمان الرسول العميق بالله العلى القدير ، فقد كان عداء قريش الشديد يزداد على مر الأيام ، وزاد فى حنقهم وغيظهم أن المسلمين قد أصبحت لهم الكلمة العليا فى يثرب ..

بقى محمدا منفردا بين أعدائه الكثيرين ، ولم يبد على واحد منهم أنه يستعد للهجرة ، حتى لقد سأل أبو بكر صديقه : متى الرحيل ؟ فطلب منه أن يصبر والا يحدثه فى هذا الأمر بعد .. ولكن قريشا أدركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن أن يفلت منها ، وأن محمدا يبالغ فى الكتمان لأنه يدبر أمرا .. ولئن انضم محمد الى أصحابه واعتصموا بيثرب فستأتى الأيام الشداد اذن .. ودبرت قريش أمرا .. واجتمع القوم فى دار الندوة للتشـاور فى هذا كله وفى وسيلة اتقائه ..

قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

ولكن هذا الرأى قوبل بالرفض .

وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، اذا غاب عنا فرغنا عنه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

ولكنهم خافوا أن يلحق بيثرب وأن يصيبهم ما يفرقون منه .

وانتهوا الى الرأى الذى عرضه عليهم أبو جهل بن هشام قال :

ـــ أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليـــه ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل (١) فعقلناه لهم !!

واختاروا فتيانهم ، وباتوا يحسبون أن أمر محمد قد فرغ منه ، وأنه بعد أيام سيوارى وتوارى دعوته الثرى ، وسيعود الذين هاجروا الى يثرب الى قومهم والى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها ألتى تمزقت !

وأتى جبريل الرسول الكريم فقال :

ـــ لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه .

فلما رأى محمد مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشي وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم .

وخرج محمد فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله العلى القدير على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب

(١) العقل : الدية .

على رؤوسهم ، وهو يتلو الآيات من « يس » : [يس والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم] الى قوله : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » حتى فرغ الرسول من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب . فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال :

ـــ ما تنتظرون ها هنا ؟

قالوا : محمدا .

قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد . ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد الرسول ، فيقولون :

ـــ « والله ان هذا لمحمد نائما ، عليه برده » فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على بن أبى طالب عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذى حدثنا .

وثارت ثائرة قريش .. ومضت فى سعار مجنون تبحث عن محمد فى كل طرقات مكة ..

فى ذلك الوقت كان محمد قد أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ووقف محمد يرنو الى البيت العتيق فترة ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة ثاقبة وقال مودعا :

« والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » .

وعمد محمد وابو بكر الى غار ثور ـ جبل بأسفل مكة ـ فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما ، يأتيهما اذا أمسى فى الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما ، وأقاما بالغار ثلاثة أيام كانت قريش أثناءها تجد فى طلبهما غير وانية .. وكيف لا تفعل وهى ترى الخطر محدقا بها ان هى لم تدرك محمدا ولم تحل بينه وبين يثرب !

أما الرجلان فأقاما بالغار ومحمد لا يفتر عن ذكر الله ، اليه أسلم أمره واليه تصير الأمور ، وابو بكر يرهف أذنه يريد أن يعرف هل الذين يقفون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحا .

ووصل جماعة من قريش حتى باب الغار ، ولما سمع ابوبكر وقع أقدامهم أحس حزنا ثقيلا ، لا خوفا على حياته ، بل ضنا بحياة غالية ، حياة أغلى من حياته ، حياة محمد ..

يا للحظة الرهيبة ، ان سيوف الأعداء متعطشة الى الدماء ، انها لتهتز فوق رأسيهما ، نظرة واحدة داخل الغار ، فينتهى كل شىء .. ان أشجع شجاع ليرتجف خوفا من هول هذا الموقف ، لقد وطن طواغيت قريش أنفسهم على قتلهما ، وهم على قيد خطوات منهما ، والموت فاغر فاه ينتظر فريسته ، ولكن محمد بقى ثابت الجنان ، لا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا .. انه يثق فى الله ، ويعلم أنه يحميه ، وأنه لن يضيعه أبدا .

يقول القرآن الكريم : (الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ، ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وايده بجنود لم

تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم (١)) .

وقد وصف ابن هشام الطريق الذى سلكه الرسول وصحبه من جبل ثور الى يثرب فقال : ان عبد الله بن أريقط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عسفان (٢) وتبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلا ، ثم سلك بهما الدليل على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن جاز قديد ، ثم سلك الحزار (٣) وهو واد يقع فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة ، ثم أخذ بهما الجداجد (٤) وتقع فى أرض مستوية صلبة ، ثم هبط بهما العرج (فنزل بطريق مكة على طريق الحاج) ثم هبط وادى العقيق الذى يؤدى الى المدينة ، وقدم بهما قباء على عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر ، وأسس مسجده فى هذه الأيام الأربعة . وبينما هما بقباء لحق بهما على ابن أبى طالب بعد ما رد الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابها من أهل مكة .

---

(١) سورة التوبة : ٣٩ .

(٢) قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر الاحمر على حد تهامة على طريق المدينة ويكثر بها النخيل والمزارع .

(٣) موضع بالحجاز قرب الجحفة . انظر كتاب معجم ما استعجم للبكرى جـ ٢ ص ٤٩٢

(٤) جمع جدجد وهى الارض المستوية الصلبة ويجوز أن يكون جمع جدجد وهى البئر القديمة .

وهكذا غادر الرسول مكة متحملا كل ألم وتعب فى سبيل اعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

خرج الرسول من قباء يوم الجمعة ، ميمما شطر يثرب ، فلما ادركته الصلاة فى الطريق صلى بالناس الجمعة لأول مرة ، ثم تابع سيره الى يثرب فوصل اليها فى ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م (١) .

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٢٥٥ .

الفصل الرابع

محمد... واليهود

كان اليهود قبل ظهور الاسلام قد نزحوا الى الجزيرة العربية فرارا من مخالب النسر الرومانى ، وحطت جماعاتهم على أخصب بقاع الحجاز واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة . وقد أدى استعمارهم تلك البقاع واعتزازهم بأنفسهم ودينهم الى كراهية العرب لهم ورغبتهم فى اخراجهم من الحجاز . ويبدو هذا واضحا فى يثرب حيث كان الأوس والخزرج يبذلون جهدهم للحلول محل اليهود فى أراضيهم الخصبة (١) .

عاش اليهود فى يثرب وخيبر واليمن وجاور اليهود أهل يثرب . أما مكة والطائف لم يكن بها غير الوثنية لبعدها عن مواطن اليهود .

وقد أنشأ اليهود فى يثرب معاصر للخمور ومراعى للخنازير وبيوتا للهو !

وسيطر اليهود على مرافق التجارة والصناعة فأثروا ثراء فاحشا على حساب الوجود العربى الذى تمزق بالعداوة بين أبناء البلد من أوس وخزرج .

يقول اسرائيل ولفنسون « أن اليهود (٢) (نزلوا على البلاد ضيوفا مضطرين فارين من مخالب النسر الرومانى .

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٤

(٢) كتاب تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧

وكان أخذ الربا شائعا عندهم لا يرون فيه شيئا معيبا مطلقا ، بل يعتبرونه نوعا من البيع والشراء .

وأقبلوا يقيمون الآطام والحصون على رءوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الحرب .

وكان يهود يثرب ينقسمون الى ثلاث عشائر : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير .

أما بنو قينقاع فاستقلوا بحى الصاغة فى يثرب ، وفيه يتكدس ما تملكه يثرب من الذهب ، وتقع المصارف التى تقرض الربا .

وكانت قبيلة بنى قينقاع تملك معظم رءوس الأموال التى توظف فى صناعة الأسلحة وغيرها من الصناعات وفى تمويل القوافل وفى تجارة الذهب .

أما اليهود الآخرون من بنى النضير وبنى قريظة فقد كانوا يقدرون النفوذ الذى يمنحه امتلاك الأرض فى بلد يعتمد معظم اقتصاده على الزراعة . ولذلك وظفوا أموالهم فى الزراعة فامتلكوا الحدائق الواسعة ، وكثيرا من الحقول والمراعى .

وقد ذكر الواقدى أن أسرة أبى الحقيق اليهودية تخصصت فى صناعة الحلى ، وأدوات الزينة ، وكان يفد اليها الناس من مكة يشترون منها الحلى لعرائسهن ونسائهن .

كان بقية سكان يثرب يشتغلون بالزراعة ، السادة من الأوس والخزرج يملكون .. والأجراء يعملون جنبا الى جنب مع عبيد الأرض .

وأوشك أهل يثرب جميعا أن يتفقوا للمرة الأولى على اختيار حاكم واحد هو عبد الله بن أبى سلول بعد أن وضعت حرب « فجار يثرب » أو فجار الأوس والخزرج أوزارها ، وانتهت

بانتصار الأوس ثم اتفق الطرفان على الصلح (١) وبدأ هو يستعد لاستقبال التاج حتى كان التقاء اليثربيين بمحمد ، ثم وصول المهاجرين اليها ، ومن ورائهم محمد ، فتوقف كل شيء ، وأسرها ابن أبي ساول فى نفسه .

وآخى محمد بين الأنصار والمهاجرين . وبدأ المهاجرون يعملون من أجل لقمة العيش . فمحمد يمجد العمل ، والذين لا يستطيعون العمل يجدون حقهم المعلوم فى أموال اخوتهم المسلمين القادرين .

وشعر أغنياء يثرب ممن لم يدخلوا فى الدين الجديد أن ثمة طبقة جديدة من الأغنياء تنافسهم على الثروة ، وتفسد عليهم أسلوب العلاقات مع الآخرين . ان الأسلوب الجديد فى العلاقات بين الأغنياء والفقراء يشكل خطرا ماحقا عليهم . هل يجب على كل الأغنياء أن يطعموا الفقراء مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون ؟ أيعطى العمل للأجير حقا مثل صاحب رأس المال الذى يستأجره ؟ انه يجب صد هذا التيار قبل أن يقتحم بالثورة على الملاك الأغنياء . وكان معظم هؤلاء الأغنياء من اليهود . فقد دخل العرب جميعا من الأوس والخزرج تحت راية الاسلام .

ورأى محمد ألا يبادرهم بالعداء ، فهو فى موقف دقيق ، أنه لفى حاجة الى أن يتألف قلوب أهل المدينة جميعا ، وكان محمد يعرف من غير شك قوة هذه الفئة الاقتصادية ، وما أحاطت به نفسها فى مقامها بيثرب من منعة ، وما أذاعت عن نفسها من أنها شعب الله المختار ، وأنها طبقة فوق طبقات البشر .

وقد آثر محمد فى أول الأمر أن يحاسن اليهود ويصافيهم ، وان لم يغب عنه أنهم يضمرون له الشر ، وأنه لا يمكن لهم أن يقبلوا

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢٩٥ .

دعوته ، وهم الشعب المختار ، وهم المعتزون بما لهم المعتصمون بحصونهم وآطامهم .

يقول الدكتور ولفنسون(١) :

(ويبدو لى أن اليهود كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قدوم النبى الى يثرب ، وكانوا يعتقدون أنه فى مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبى فى يثرب بأعلى صوته : هذا جدكم قد جاء .

كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى اسرائيل يدعو الى توحيد الاله والى تعاليم التوراة والى تمجيد ابراهيم وموسى انما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ الانسانى .

ولا شك أنهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية وانه كان لهذه الآيات وقع طيب فى نفوسهم جعلهم يؤملون فى هجرة النبى الى يثرب آمالا عريضة) .

وكم كان يكون جميلا أن يتخلق يهود يثرب بهذا الخلق ، وأن يروا فى محمد نبى التوحيد الجديد هاديا ومرشدا ومنقذا للبشرية من ضلالات تردت فيها ، ولكن هل كان يقبل « شعب الله المختار » هذا الأمر ؟!

لقد رأى اليهود فى محمد وتعاليمه خطرا داهما يهددهم .. أنه يدعو الى تحريم الخمر ، ويحض الناس على كراهية لحم الخنزير ، ويحرم الربا .. وهم يوظفون رءوس أموالهم فى صناعة الخمور ، وفى تربية الخنازير ، ويتعاملون بالربا ..

ومحمد يقول أن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن لا فضل

---

(١) كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب »

لعربى على عجمى الا بالتقوى . واليهود يرون فى أنفسهم أنهم « شعب الله المختار » فكيف يتساوون مع باقى البشر ؟!

ان « اسرائيل ولفنسون » لم يذكر فى كتابه سندا واحدا ، يمكن أن يدعم زعمه هذا ، بل ان محاورات محمد مع اليهود ، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن اليهود قابلوه بروح التحدى الشديد ، وحاولوا أن يشككوا فى كلامه ، وأن يزيفوا ما بين أيديهم من علم لا لشىء سوى أنه عربى والنبوة مقصورة فى نظرهم عليهم ، ولأنه أيضا بعث فى الحجاز والنبوة فى رأيهم انما تكون فى الشام موطن الأنبياء[1] . وقد ورد فى القرآن الكريم تقريع شديد لهم فى أكثر من موطن يدحض هذا القول .

ويمضى ولفنسون فى فرضياته فيقول [ويظهر أنهم — أى اليهود — كانوا يعتقدون أو على الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل فى دينهم ، حيث يتعاونون على محو عبادة الأوثان ، وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضا أن يتمكن النبى من التأليف بين البطون اليثربية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى حاجة شديدة الى الهدوء والسكينة . وكانوا يعتقدون أنه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ، ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها] وهذا الغرض أيضا منهار اذ لا أساس يدعمه من منطق أو نصوص ، بل ان المؤلف نفسه فى غيرهذا الموطن ينعى على يهود يثرب أنه لم يقم بينهم طوال الفترة التى أقاموا فيها بالحجاز داعية جرىء يدعو العرب الى اليهودية ، ويحسن لهم اعتناقها . وهذا صحيح لأن اليهود فى ذلك العهد ، وفى جميع أدوار تاريخهم لم يعنوا بنشر عقائدهم ، لأن عقيدة الشعب المختار تتملكهم ، ويرون أن تعاليم التوراة قاصرة عليهم وبها يستطيعون أن يمتازوا على البشر . فكانوا

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١٤٤

فى مقامهم بالجزيرة منطوين على أنفسهم من الناحية الدينية ، ولا يسمحون بنشر ما لديهم من علم .

اذن ، لا محل لأن يزعم « ولفنسون » أن يهـــود يثرب كانوا يطمعون فى الاعتزاز بالدين الاسلامى لمحو الأوثان ، بل لعلهم كانوا شديدى الحرص على بقاء هذه الأوثان لما تنشر فى عقول عابديها من جهالة ؛ وفى ظل هذه الجهالة يستطيع اليهود أن يبسطوا نفوذهم ، وأن يستغلوا هذه القبائل اقتصاديا أبشع أنواع الاستغلال .

حاول الرسول أن يجذب اليهود الى الاســلام ، بل ان المؤرخ «توماس أرنولد(١)» يذهب الى أن اتخاذ بيت المقدس قبلة للمسلمين فى الصلاة ــ قبل اتخاذ الكعبة ــ كان المقصود به استمالة اليهود .

وأراد الرسول أن يضع نظاما يحقق وحدة يثرب ، فيقضى اولا على العداء المستمر بين الأوس والخزرج ، ثم يضم اليهود الى دائرة هذا الاتحاد الجديد كحلفاء .

وما لبث أن عقــد أول معاهدة دوليــة بين المســلمين واليهود والمشركين ، وهى من أنفس العقود الدولية وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة ..

هذه الوثيقــة هى عقد حسن جوار وتحالف دفاعى ، وتعاون ضد العدوان ، قصد بها صيانة مجموعة من دويلات ، كل منها يتمتع فى نطــاق الميثاق بســيادته الخاصــة على قومه ، وبحرية الدعوة لدينه .

ويتكافل الموقعون على هذه الوثيقة على نصر بعضهم بعضــا ، وحماية عقائدهم ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء ، وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة ، وحرية الدعوة لأعضــاء الميثاق على تباين معتقداتهم .

وهذه هى الوثيقة(٢) :

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٤٧

(٢) الدكتور محمد حميد الله الحيدرى أبادى « الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » وانظر ايضا « ابن هشام » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش « وأهل » يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢ ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم(١) يتعاقلون(٢) بينهم وهم يفدون عانيهم(٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ ـ وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون ، معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ ـ وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ ـ وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) أمرهم الذى كانوا عليه .

(٢) يأخذون ديات القتلى ويعطونها . وأصله من العقل وهو ربط أبل الدية لدفعها لاهل القتيل .

(٣) أسيرهم .

١٢ – وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

١٢ «ب» – وأن يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ – وأن المؤمنين المتقين « أيديهم » على « كل » من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(٢) ظلم أو اثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

١٤ – ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن .

١٥ – وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ – وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٧ – وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

١٨ – وأن كل غازية غزت معنا يعقب(٣) بعضها بعضا .

١٩ – وأن المؤمنين يبيء(٤) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ – وأن المؤمنين المتقين على أحسن هذى وأقومه .

---

(١) هو من اثقله الدين والعزم فأزال فرحه .

(٢) الدسع : الدفع والمعنى طلب دفعا على سبيل الظلم أو ابتغى عطية على سبيل الظلم .

(٣) أى يكون الغزو بينهم نوبا يعقب بعضهم بعضا فيه

(٤) من أبات القاتل بالقتيل اذا قتلته به .

٢٠ (ب) ـ وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ ـ وأنه من اعتبط(١) مؤمنا قتلا عن بينه فانه قود(٢) به الا أن يرضى ولى المقتول « بالعقل » ، وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

٢٢ ـ وانه لا يحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد .

* * *

٢٤ ـ وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ ـ وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتع(٣) الا نفسه وأهل بيته .

٢٦ ـ وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٧ ـ وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٨ ـ وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٩ ـ وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

---

(١) قتله بلا جناية أو جريرة توجب قتله .

(٢) فان القاتل يقاد به ويقتل .

(٣) يهلك ويفسد .

٣٠ ـ وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٣١ ـ وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته .

٣٢ ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ ـ وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البر دون الاثم .

٣٤ ـ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ ـ وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد .

٣٦ «ب» ـ وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه واهل بيته الا من ظلم ، وأن له على أبر هذا .

٣٧ ـ وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

٣٧ ت ـ وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .

٣٨ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ ـ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ ـ وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ ـ وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

٤٢ ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٣ ـ وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤ ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥ ـ واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين .

٤٥ ب ـ على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٤٦ ـ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وابره .

٤٧ ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وانه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم واثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

* * *

فى هذا الميثاق وضع محمد أساس الدولة الجديدة ، وأصبح المؤمنون والمسلمون رعايا هذه الدولة على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم أسيادا أو موالى أمة واحدة دون الناس . هذه الأمة تتعاقد فى هذه الصحيفة مع (أمم أخرى) من ديانات أخرى ، فينشأ فى أول تعاقد لها ميثاق « لجمعية أمم » أساسه النصر للمظلوم والنصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وحرمة الأوطان المشتركة وحرمة من يدخل فى الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم فى الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان ، فهو ميثاق بين الأمم الاسلامية واليهودية بل والوثنية ، لما فى يثرب وقتئذ من الوثنيين الداخلين مع طوائف الميثاق المكونين

لأطراف العقد(١) ومضى الرسول شوطا آخر فى سبيل تأليف قلوب اليهود وانزالهم عن طبيعة الحذر والعناد ، فأحل للمسلمين الأكل من طعام اليهود ، كما أحل لهم التزوج من بناتهم وجاء فى القرآن الكريم نص على هذا فى سورة المائدة :

[اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعـام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، اذا آتيتموهن أجـورهم محصنين غير مسافحين ، ولا متخذى أخدان ، ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين] .

ولكن اليهود أخـذوا يسحبون يدهم التى مدوها للتعـاقد ، واخذوا يكيدون للمسلمين الذين أصبحوا كتلة قوية متحابة . . فأوعز أحد اليهود واسمه « شاس بن قيس » الى شاب يهودى أن يجلس بين الأوس والخزرج وينشد ما قال بعضهم لبعض أيام الجاهلية ، من تفاخر وتنابذ بالألقاب ليثير بينهم العداء القـديم ، ففعل . . فتنازعوا وتفاخروا حتى عمـل الضغن فيهم فتواثب رجلان على الركب وقال أحدهما للآخر : ان شـئتم رددنا الحـرب فى قوتها وشبابها وحرها ولفحها وغضبوا جميعا وقالوا : قد فعلنا موعدكم كذا السلاح . . السلاح . . فبلغ ذلك الرسول فخـرج فيمن معه حتى جاءهم وقال :

ـ [يا معشر المسـلمين الله الله أبدعوى الجاهليـة وأنا بين أظهركم بعد أن هـداكم الله للاسـلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم] .

---

(١) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٨٧

فعلموا أنها كيد من اليهود ، والقوا السلاح واستغفروا . وفى هذا يقول القرآن الكريم فى سورة آل عمران :

[يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد ايمانكم كافرين] .

يقول ابن هشام عن هذه الفترة من حياة الرسول التى شغلت برد كيد اليهود :

[ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ، بغيا وحسدا وضغنا ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف اليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان عسى على جاهليته (تمسك بها) ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث . الا ان الاسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالاسلام واتخذوه جنة (وقاية من القتل) ، ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود ، لتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وجحودهم الاسلام . وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنتونه (يشقون عليه) ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، الا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها] .

— ٥ —

ولكن هذه الفتنة الفكرية لم تحل دون أن يقبل على الاسلام ويعتنقه اثنان من أحبار اليهود المعروفين هما الحصين بن سلام ومخيريق .

وكان اسلام الحصين بن سلام سببا فى اذكاء الخلاف بين رؤساء اليهود خشية أن تقبل بقية الطائفة على الدين الجديد فتمحى الاسرائيلية من الجزيرة العربية .

وقد اتخذ اسلام عبد الله هذا مظهرا رائعا ، ولندعه يروى قصة اسلامه ، قال :

[لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوقع له ، فكنت مسرا لذلك صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت . فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت ! فقلت لها : اى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به . فقالت : اى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر انه يبعث مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم .

فقالت : فذاك اذن . قال : ثم خرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت ، ثم رجعت الى أهل بيتى ، فأمرتهم ، فأسلموا .

وكتمت اسلامى عن يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله ان يهود قوم باطل ، وانى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا باسلامى ، فانهم ان علموا به بهتونى وعابونى . فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ، ثم جاء وفد من اليهود .

فقال الرسول لهم : اى رجل الحصين فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا .

فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله انكم لتعلمون انه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فانى أشهد انه رسول الله ، وأؤمن به ، وأصدقه وأعرفه . فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى .

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله انهم قوم باطل ، أهل غدر وكذب وفجور . فأظهرت اسلامى واسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن اسلامها .

وكان مخيريق حبرا عالما ، وكان رجلا غنيا كثير الأموال ، وكان يعرف الرسول بصفته وما يجد فى علمه ، وغلب عليه الف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى اذا كان يوم أحد ، وكان يوم أحد يوم السبت ، فقال :

ــ « يا معشر يهود ، والله انكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق » .

قالوا : ان اليوم يوم السبت .

قال : لا سبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى الرسول بأحد ، وعهد الى من وراءه من قومه : ان قتلت هذا اليوم ، فأموالى لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله .

فلما دارت المعركة ، قاتل حتى قتل .. فكان الرسول يقول : مخيريق خير يهود .

وقبض الرسول أمواله ونخله الكثير ورصده لصدقات اهل يثرب .

وبدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد عنفا وأكبر مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش فى مكة .

فى هذه الحرب تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، أقامتها اليهود جميعا صفوفا متراصة يهاجمون بها محمدا ورسالته واصحابه من المهاجرين والأنصار .

دسوا من احبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ، ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب ، ويلقى على محمد من الأسئلة مايحسبه يزعزع فى قلوب المسلمين عقيدتهم به . وانضم الى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين اسلموا نفاقا أيضا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين ، وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما فى التوراة .

وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم ، ورأوهم فى المسجد يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم الرسول فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا ، ولم يثنهم ذلك عن دسائسهم وسعيهم فى الوقيعة بين المسلمين .

بلغ الجدال بين محمد واليهود حدا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه . فقد نزل صدر سورة البقرة الى الآية الحادية والثمانين منها ، ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وانكارهم ما فى كتابهم ويلعنهم لكفرهم .

[ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا : قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون

على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (١)]

وأوحى الله لرسوله ، على رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته الى المسجد الحرام ، فنزلت الآية :

[قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره (٢)]

ان فى مطلع الآية [قد نرى تقلب وجهك فى السماء] قرينة قوية على ما كان يختلج فى نفس محمد من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ما قام فيها من رغبة فى التحول عنها .

وقوله تعالى [فلنولينك قبلة ترضاها] يمكن أن يلهم أن الرسول الكريم صار يائسا أو كاليائس من اليهود ، وثارت فى نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة . تراءى له أن اتجاهه الى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن دعوته الى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب كما أن ذلك هو الأولى ؛ لأنها بيت الله العربى القديم الذى يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذى هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعا فى حجه ، فكان يتمنى ان يتحول اليها فى صلاته وتكون قبلته ثانية ، ولعله كان يسمع تألما أو انتقادا أو يرى حيرة العرب مسلمين وغير مسلمين فى الاتجاه الى المسجد الأقصى واهمال الكعبة وهى بيت الله العربى المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما فى نفسه من الرغبة والأمنية (٣) .

---

(١) سورة البقرة : ٨٧ ــ ٨٩
(٢) سورة البقرة : ١٤٤ .
(٣) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ص ٧٠ .

وقد أنكر اليهود عليه ما فعل وحاولوا فتنته بقولهم : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه ؟ ارجع الى قبلتك التى كنت عليها ، نتبعك ونصدقك .

فنزل قوله تعالى :

[سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهـــدى من يشـــاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله (١)]

ولما تعـــذر أن يكون اليهود مع المسلمين أمة واحدة ، رأى الرسول أن يدعوهم الى الاســلام ، وقد أورد ابن اسحق صورة كتاب الرسول الى يهود خيبر مرويا عن ابن عباس وهذا نصه :

[بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم صاحب موسى واخيه ، والمصدق لما جاء به موسى . الا أن الله قد قال لكم يا معشر اهل التوراة ، وانكم لتجدون ذلك فى كتابكم [محمد رسول الله والذين معه أشـــداء على الكفار رحمـــاء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضـــلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه (٢) فآزره ، فاستغلظ فاســتوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما]

---

(١) سورة البقرة : ١٤١ ـ ١٤٣ .

(٢) أنبته نباتا جديدا

وانى انشدكم الله وأنشدكم بما أنزل عليكم وانشدكم بالذى اطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى .

وانشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من فرعون وعمله الا أخبرتمونى : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟

فان كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم .. قد تبين الرشد من الغى فأدعوكم الى الله والى نبيه]

وكانت هذه الدعوة الكريمة الى الله ورسوله التى احتكم فيها محمد الى أسفار اليهود نفسها كأنها لم تكن فقد صموا عنها آذانهم ولجوا فى طغيانهم .

كان المسلمون يدخلون على اليهود معابدهم فى بعض الأحيان ويجادلونهم فيما يرجف به أحبارهم ، فمن هذا أن أبا بكر الصديق دخل معبد اليهود مرة . فاذا عدد كبير من اليهود قد اجتمعوا حول حبرهم فنحاص .

فقال له أبو بكر :

ـ ويحك يا فنحاص . اتق الله واسلم ، فوالله انك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل .

فرد فنحاص بقوله :

ـ والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وانه الينا لفقير ، وما نتضرع اليه كما يتضرع الينا ، وانا عنه أغنياء وما هو عنا بغنى . ولو كان غنيا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا .

وفنحاص يشير هنا الى قوله تعالى :

[من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة (١)]

فغضب ابو بكر غضبا شديدا وهجم على فنحاص فضرب وجهه ضربا مبرحا وقال :

ــ « والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت راسك يا عدو الله » .

وشكا فنحاص أمره الى الرسول وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله ، فنزل قوله تعالى :

[لقد سمع الله قول الذين قالوا : ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول : ذوقوا عذاب الحريق (٢)]

ــ ٦ ــ

الطريق طويل شاق .. ومحمد ينصح المهاجرين والأنصار الا يحملوا فى قلوبهم غير الحب فما يجتمع فى جوف انسان الايمان والحسد .

وانه ليؤكد لهم أن خيرهم هو من يتفانى فى سبيل ما يؤمن به ، وان الطمع فى متاع الدنيا يفسد القلب . وأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الهشيم .

وبينما كان محمد يدعو الى تعاليمه السامية بالحسنى ، أخذ اليهود يموهون الحقائق ويحاولون فتنة المسلمين . ومع هذا كله احتمل محمد الحرب الدعائية التى شنها عليه اليهود شهورا طويلة .. وكان ينصح أتباعه بالكف عنهم .

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٥

(٢) سورة آل عمران : ١٨١ .

ويبدو أن بنى قينقاع من اليهود كانوا أكثر نشاطا فى الحرب النفسية من غيرهم من اليهود لأنهم كانوا يقيمون فى أحياء المسلمين وسط يثرب نفسها .

فلما كان نصر بدر (١) الذى أفاءه الله على رسوله وعلى المسلمين ، نزل باليهود هم ثقيل ، وغم شديد . وقد حاولوا جهدهم أن يكذبوا البشير الذى جاء على « القصواء » ناقة الرسول ، بقولهم :

ـ « ان محمدا قد مات ، ولو كان حيا لما ترك ناقته » .

ولكن لم يمض الا أيسر الوقت حتى عاد الجيش الاسلامى ظافرا ، وصعق اليهود عندما رويت لهم تفاصيل المعركة ، وكيف انتصر المسلمون على قلتهم ، وهزم المشركون على كثرتهم .

وقال أحد زعماء اليهود :

ـ « بطن الارض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب اشراف الناس وساداتهم وملوك العرب ، وأهل الحرب والأمن » .

وأمر محمد أن يجتمع له يهود بنى قينقاع فى السوق وتحدث اليهم قائلا :

---

(١) كانت معركة بدر أول انتصار للمسلمين فى حروبهم ولم تكن من المعارك الكبرى من حيث عدد جيوش المتحاربين واستعدادهم الحربى فان عدد المسلمين كان نحو ٣١٣ يقابلهم نحو ألف من أهل مكة . ولكنها معركة مهمة لانها كانت بمثابة الحجر الاساسى فى انتصار الرسول فى غزواته المقبلة وهى بدء تحول خطير فى تاريخ الاسلام وتاريخ العالم .. وقد أشار البروفسور نكلسون فى كتابه : «Literay History of the Arabs» الى أن معركة بدر هى أول حادثة لفتت نظر القبائل الى محمد وأثارت أعجابهم به . ويقول فى شأن هذه المعركة ومهما كان العرب قليلى الاكتراث بدين محمد ، فانهم لم يستطيعوا الا ان يحترموا الرجل الذى أذل نبلاء مكة ، ويعد نيكلسون معركة بدر من اعظم المعارك العالمية التى غيرت وجه التاريخ .

ـ يا معشر يهود . . احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا ، فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل : تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله اليكم .

فردوا عليه ردا جافا بقولهم :

ـ يا محمد . انك ترى أنا قومك (أكفاؤك) لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . وانا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وقد تناول القرآن الكريم رد بنى قينقاع على الرسول فقال :

[قل للذين كفـــروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار (١)]

ولم يعد هناك مندوحة عن محاربتهم الا أن يتعرض المسلمون ويتعرض سلطانهم بمكة للتداعى والانهيار .

يقول ابن هشام [كان من أمر بنى قينقاع أن إمرأة من العرب قدمت بجلب لها « ماشية » ، فباعته بسوق بنى قينقاع . وجلست الى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت . فعمـد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها . فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها . فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه .

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود . فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

(١) سور آل عمران : ١١ ـ ١٣

امر الرسول بحشد جيشه ، ثم سار به الى حى اليهود فى المدينة ، وحاصره خمسة عشر يوما متتابعة ، ومنع على اليهـود الخروج أو الدخول كما منـع عنهم الطعام والماء حتى جهـدهم الحصار ، ولم يغنهم حلفهم مع الخزرج شيئا .

ولم يبق أمامهم مناص من النزول على حكم محمد والتسـليم بقضائه . فلما سلموا قرر محمد ، بعد مشورة كبار المسلمين قتلهم جميعا .

فقام اليه عبد الله بن أبى سلول ، فقال :

ــ يا محمد . . أحسن فى موالى . فلم يجبه الرسول فكرر له .

ــ يا محمد أحسن فى موالى .

فأعرض الرسول عنه فأدخل يده فى جيب درع محمد ، فتغير الرسول وقال :

ــ أرسلنى . . وغضب حتى رأوا لوجهه ظـلا ، ثم أعاد وأثر الغضب فى نبرات صوته : « ويحك ! أرسلنى » .

فقال عبـــد الله : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع [لابسوا الدروع] قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، انى والله امرؤ أخشى الدوائر .

ونظر محمد الى عبادة بن الصامت وكان حليفا لهؤلاء اليهود مثل عبد الله بن أبى ولكن عبادة قد تبرأ من حلفهم ، وخلع عهدهم ، وترك أمرهم لمحمد ، وقال : يا رسول الله ، أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

وهنا رأى الرسول أن يجامل عبـد الله فهو لا يزال صاحب نفوذ فى المشركين ، وان كان هذا النفوذ قد ضعف بقوة المسلمين .

كما أن اسداء هذه اليـد الى عبد الله والى المشركين موالى يهود جميعا يجعلهم مدينين لاحسانه ورحمته ، فقال الرسول لعبد الله :

ــ هم لك .

وتم الاتفـاق على ان يرحل هؤلاء اليهود عن المدينـة ، وقد تم اجلاؤهم فى ثلاثة أيام ، وبعد أن صادر المسلمون أسلحتهم وأموالهم التى خلفـوها وانتهى مسير هذه القبيـلة اليهودية الى أذرعات بالشام .

وقد حاول « ولفنسون » فى كتـابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » أن يجعل من أسباب اجلاء اليهود الاستحواذ على أموالهم ، فيقول :

[وكان المهاجرون ينتظرون بصبر نافد نتيجة مقاومة اليهود فى يثرب لأن حالتهم كانت بالغـة السوء ، اذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منـازل بل كانوا يسكنون مع الأنصـار من الأوس والخزرج] .

وهذا الادعاء لتحميل المسلمين تبعة نقض المعاهدة مع اليهود ، لا يستند الى أى أساس بعدما ذكرنا من اخلال اليهود بكل المواثيق ، وفى هجومهم الشـديد على العقـائد ومحاولتهم اثارة النعرات الجاهلية بين الأوس والخزرج من جديد ، ومن انتهاكهم للحرمات واعتدائهم على النساء .. ثم تهديدهم محمد بالحرب وهو يدعوهم الى الاسلام ، بدعوى « أنهم هم الناس » ! !

كل هذه الأسباب كانت تكفى لأن يحارب محمد هذا الحى من اليهود وقد نقض الميثاق وأخل بالعهود .

والواقع أن الحالة الاقتصادية فى المدينة لم تكن حسنة ، بيد أنها لم تكن سيئة بالدرجة التى يصورها « ولفنسون » ، فقد نظم

المهاجرون حياتهم فى المدينة ، فمنهم من تاجر ، ومنهم من زرع ، ومنهم من اشتغل بالصناعة التى كان يشتغل بها فى مكة .

كما أن هذا السبب ينهار من أساسه حين نذكر أن اجلاء بنى قينقاع تم بعد غزوة بدر وقد غنم المسلمون من بدر غنائم جمة . كما أن أسرى المشركين فى بدر وعددهم ثلاثة وأربعون أسيرا كانوا يفدون أنفسهم بالأموال الطائلة التى تتراوح بين أربعة آلاف وألف درهم . فاذا كان المسلمون قبل بدر فى أزمة اقتصادية ، فقد فرج النصر هذه الأزمة .

— ٧ —

أخذت قريش تستعد لبناء قوة عسكرية ضخمة ، لكى تشن هجوما على المدينة .. القاعدة المؤمنة التى استطاعت أن تقطع عليها طريق الساحل الى الشام وطريق نجد الى العراق ، وأن تحالف قبائل ، وتهزم قبائل وتشل قوة اليهود فى المدينة .

وتصل الى محمد أخبار تجمع قريش وحلفائها من قبائل تهامة وبنى كنانة ..

ويجمع الرسول أصحابه فى يوم عصيب ..

جاء المشركون ونزلت خيولهم حقول المسلمين بظاهر المدينـة فأتت عليها ولم تترك فيها خضراء . جيش لجب من ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبعمائة دارع ومائتا فارس .

المنافقون والمرجفون فى المدينة يتربصون بالمسلمين الدوائر .

اليهود من بنى النضير وبنى قريظة يظهرون عطفا على المسلمين ، تبدو فيه رائحة الخيانة والغدر .. الصحابة آراؤهم موزعة بين الخروج الى أعدائهم ـ كما فعلوا فى معارك سابقة وانتصروا فيها ـ وبين اتباع اسلوب من المقاومة الشاملة داخل حصون المدينة .

يقول محمد :

ـ ايها الناس ، انى رايت فى منامى رؤيا : رايت كانى فى درع حصينة ، ورايت كان سيفى ذا الفقار انفصم عند ظبته (طرفه) ورايت بقرا تذبح . ورايت كانى مردف كبشا .

فقال الناس : فما أولتها ؟

ـ أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها ، واما انفصام سيفى عند ظبته فقتل رجل من أهل بيتى . وأما البقر المذبح فقتلى من اصحابى ، واما انى مردف كبشا فكبش الكتيبة نقتله ان شاء الله (اى قائد العدو) .

ويوضح محمد خطته فيقول :

ـ امكثوا فى المدينة .. واجعلوا النساء والذرارى فى الاطام (وهى بيوت من الحجارة كانت لأهل المدينة) فان دخل علينا قاتلناهم فى الأزقة فنحن اعلم بها منهم ، ورموا من فوق الصياصى (الحصون) والأطام .

ويلتقى عند هذا الرأى كبار الصحابة من المهاجرين والانصار بل يرضى عنه حتى المنافقون وعلى راسهم عبد الله بن أبى سلول ويؤكد وجهة نظره قائلا :

ـ يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط الا اصاب منا ، ولا دخلها علينا الا اصبنا منه . فدعهم يا رسول الله . فان اقاموا أقاموا بشر محبس . وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان من فوقهم . وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

ويتحمس الشباب للخروج الى لقاء عدوهم بظاهر المدينة ويتفقون فى الراى مع صفوة من الصحابة كحمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة :

ـ انا نخشى يارسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج اليهم جبنا عن لقائهم . فيكون هذا جراة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم . ونحن اليوم بشر كثير . وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فساقه الله الينا فى ساحتنا .

يقولون هذا وقد لبسوا الحديد واستعدوا للحرب . ويقول حمزة وكان صائما :

ـ والذى انزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاما حتى اجالدهم بسيفى خارجا من المدينة .

ويزيد المتحدثون المطالبون بالخروج ، ومحمد لذلك كاره ، ولكن مبدأ الشورى مقرر .

وفى هذا يقول المقريزى [فلما ابوا الا ذلك صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس وقد وعظهم وامرهم بالجد والجهاد واخبرهم بأن لهم النصر ما صبروا ففرح الناس بالشخوص الى عدوهم وكره ذلك المخرج كثير (١)]

ويقول ابن اسحاق أن رسول الله كان يميل الى عدم الخروج وظل أصحابه الذين استشهدوا يوم أحد يلحون عليه حتى أجابهم الى طلبهم ، فخرج يوم الجمعة لابسا عدة الحرب ، فقال له المسلمون ـ فيما يقول ابن اسحاق ـ استكرهناك ولم يكن ذلك لنا . فان شئت فاقعد صلى الله عليك . فقال لهم النبى .

[ما ينبغى لنبى اذا لبس لامته « عدة الحرب » أن يضعها حتى يقاتل]

ومن الغريب أن اليهود الذين لم يحاربوا الرسول الا فى الحصون والذين وصفهم الله العلى القادير بقوله : لا يقاتلونكم جميعا

---

(١) امتاع الاسماع ١ : ١١٨

الا فى قرى محصنة او من وراء جدر .. يتطوعون للحرب مع محمد ! ويسأل الرسول عندما يرى كتيبتهم :

ــ ما هذه ؟

فقالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى سلول من يهود .

فيردهم محمد ..

ويتابع الجيش سيره ، فاذا بعبد الله بن أبى سلول ينخذل بثلاثمائة مقاتل وهو يقول :

ــ أيعصينى ويطيع الغلمان ؟

وتبعهم عبد الله بن عمرو يقول :

ــ يا قوم اذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوكم .

ــ لو نعلم انكم تقاتلون لما اسلمناكم . ولكنا لا نرى أنه يكون قتال .

فلما استعصوا عليه وأبوا الا الانصراف قال :

ــ أبعدكم الله أعداء الله . فسيغنى الله عز وجل عنكم نبيه .

والله العلى القدير يفضح هذا التآمر فى كتابه فيقول :

[وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١)]

ووقفت كتيبة الايمان فى المعركة الرهيبة القاسية ، التى مرت بعدة جولات سريعة متتابعة :

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٥ ــ ١٦٦ .

● تشن قريش هجوما شديدا ـ تشترك فيه الخيل ـ على ميمنة الجيش الاسلامى وميسرته ويهتز الصف ثم يثبت للصدام العنيف . وينهال على قريش وابل من السهام والحجارة فيولى رجالها مدبرين .

● يندفع قلب الجيش الاسلامى وفى مقدمة صفوفه حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وأبو دجانة الأنصارى .. ويركز الجيش هجومه على حامل لواء قريش ، ويسقط الرجل صريعا ، ومن بعده يتساقط حملة الألوية صرعى ، ويتراجع المشركون .

● تأتى الهزيمة من الرماة الذين تمكنوا فى الجولة الأولى والثانية من المعركة أن يصدوا خيل المشركين بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل . يكرر فرسان قريش المحاولة فيصدها سيل من النبل فلا تقع الا فى فرس أو رجل ، فتولى الخيل هوارب .

ظهر المسلمين محمى ، وجوههم نحو أعدائهم ، معسكر الأعداء يتهاوى .. وتمتلىء الأيدى بالمغانم وتهبط السيوف ..

وتتطلع أعين الرماة الى ما يحمل اخوانهم من متاع .. ويقول بعضهم لبعض :

ـ لم تقيمون ها هنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو . وهؤلاء اخوانكم ينهبون عسكرهم . أدخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع اخوانكم .

ويرد عبد الله بن جبير مع نفر قليل من الرماة :

ـ ألم تعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال لكم : احموا ظهورنا ولا تبرحوا مكانكم . فيرد المتطلعون الى الغنائم :

ـ لم يرد الرسول هذا .

وانطلقوا .. وبقى عبد الله بن جبير فى نفر دون العشرة ليصدوا اندفاعا قويا من مائتى فارس بقيادة خالد بن الوليد ، ويكتسح خالد بقية الرماة بعد ان دافعوا عن الموقع حتى تساقطوا جميعا شهداء ..

ولم يثبت حول الرسول الا أربعة عشر من الصحابة ، يحمونه بانفسهم ، ويحاولون فى جهد جهيد أن يشقوا وسط الطوفان الحقود طريقا الى جبل أحد .

وحول هذه القلة المؤمنة يتجمع الصحابة شيئا فشيئا وهى تتابع تقدمها الدامى الى جبل احد والشهداء يتساقطون .

يصف المقريزى هذا الموقف الرهيب بقوله :

[كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انكشف المسلمون لم يبق معه الا نفر [وهم الرهط من الرجال دون العشرة] فأحدق به أصحابه من المهاجرين والأنصار . وانطلقوا الى الشعب [فى جبل احد ليحموا الرسول] وما للمستامين من لواء قائم ولا فئة ولا جمع ، وان كتائب المشركين لتحوشهم « تأخذهم من كل جوانبهم » مقبلة مدبرة فى الوادى يلتقون ويفترقون . ما يرون احدا من الناس . ثم رجعوا نحو معسكرهم وتشاوروا فى المدينة وفى طلب المسلمين . فبينما هم على ما هم عليه فيه اذ طلع الرسول الى أصحابه فكأنهم لم يصبهم شىء حين رأوه سالما (١)]

وركز المشركون هجومهم فى صدر هذه الجولة على الرسول ومن حوله النفر القليل ، وكان هدف المسلمين ، عندما رأوا اضطراب الصفوف ، واشتداد الضغط على الرسول ، أن يحموا الرسول بانفسهم فلا يصل اليه الأعداء وان يخترقوا نطاق الكفار المضروب حولهم ــ وفى وسطهم رسول الله ــ حتى يصلوا الى مكان

(١) امتاع الاسماع ١ : ١٣٠ ــ ١٣١ .

آمن فى شعب من جبل احد . ولم يخف هذا الهدف على المشركين عندما راوا المسلمين يقاتلون بايمان عميق وفدائية عالية وهم دون العشرين ، ليحموا الرسول بينما يحاول المسلمون الذين اضطربت صفوفهم ان يشقوا لأنفسهم وسط الموجة الدامية طريقا الى حيث يقاتل اخواتهم ـ دفاعا عن الرسول ـ وعونا لهم ـ بعد هذا ـ على ان يكونوا اكثر قوة فى اختراق الحصار المضروب حولهم ، واللجوء الى جبل احد بحيث يصبح ظهرهم محميا .

وبالدم الغالى ، والتضحية النادرة ، استطاع المسلمون أن يحولوا الهزيمة الى نصر .. لأن قريشا لم تستطع أن تنال هدفيها الرئيسيين اقتحام المدينة على من فيها وقتل الرسول وكبار الصحابة .. وقفلت قريش راجعة الى مكة .

***

واقبل محمد على الناس يحدثهم عن محنة معركة أحد ، ويستخلص العبرة من اخطائهم فيها عسى ان تضيء التجربة القاسية طريقهم الى المستقبل .

وقد بالغت قريش فى استغلال انتصارها فى أحد ، وراح الشعراء يتغنون بهذا الانتصار ويهجون محمدا واصحابه ، والحض على الاحتشاد اذا جاء العام القادم .

وكان لهذا كله دوى هائل فى أرجاء الصحراء العريضة ، فبدأت تتحرش به كل القبائل التى كانت ترهبه من قبل .. وبلغ الصدى معاقل اليهود فى المدينة فشجعهم هذا على الاستخفاف به .

وكان بنو النضير يتميزون منه غيظا منذ منع أصحابه من الذهاب الى بيوتهم ليقامروا ، ومنذ حرم الخمر ولحم الخنزير ، وأعلن أحد اغنيائهم انه سيمنع المسلمين من أن يشربوا الماء من بئر « رومة » التى يملكها . وساء أهل المدينة هذا العمل فما تعودوا

أن يدفعوا من قبل للماء ثمنا ، وتمنى الرسول الكريم لو يجد من أثرياء المهاجرين من يشترى هذه البئر . وتقدم عثمان بن عفان الى اليهودى صاحب البئر وعرض عليه أن يبيعها له : فأبى ، فساومه عثمان على نصفها ، واشترى النصف باثنى عشر ألف درهم ، على أن تكون اليهودى يوما ولعثمان يوما . فكان المسلمون يستسقون فى يوم عثمان ما يكفيهم يومين ! ! . وهكذا وجد اليهودى نفسه ، وقد خسر سوقه التى كانت رائجة ، فعاد يعرض على عثمان بن عفان أن يشترى منه النصف الثانى ، فاشتراه . وفاضت البئر بمائها العذب تروى أهل المدينة بغير ثمن ! وعادت الثقة تملأ القلوب من جديد . والأيام تمضى والقبائل التى كانت ترهب محمدا تستعد للقائه .

واستقبل ذات يوم وفدا من بنى سليم جاءوا يطلبون منه أن يرسل اليهم من يثقفهم فى الدين الجديد فقد مالوا اليه بعد أن كانوا من أشد الأعداء ، وأرسل معهم ستة من أصحابه ، بيد أنهم يضمرون الكيد له ، وليجعلوه سخرية بين القبائل !

وتلقى محمد وفدا آخر من بنى هزيل فأرسل بعض صحبه اليهم ليثقفوهم فى الدين الجديد ولكنهم كانوا يضمرون غير ما قالوا فلم تكد وفود محمد توغل فى الصحراء حتى وثب فرسان بنى سليم على من معهم فقتلوهم الا رجلين ، ووثب بنو هزيل على من معهم فقتلوهم الا واحدا . .

وأخذ محمد يكفكف دموع أسر القتلى ، وهم ليسوا أمواتا بل شهداء « أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وأقبل وفد من نجد يطلب من محمد أن يرسل اليهم من يثقفهم فى الدين الجديد ، وقد استوثق حتى علم أن الأمر جد هذه المرة . .

واخرج بعض اصحابه ، وفى الطريق قتل (۱) عمرو بن أمية الضمرى رجلين من بنى عامر ــ وقد كان لهما من رسول الله جوار وعهد ـ فكتب اليه عامر بن الطفيل العامرى يقول : انك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد ، فابعث بديتهما .

ومهما يكن من ظروف هذا الحدث ، فقد ضاق محمد بهذا الذى حدث ، واراد أن يستعين ببنى النضير على دفع دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، وكان بين بنى النضير وبين عامر عقد وحلف ، فلما آتاهم الرسول الكريم ، وسألهم المعونة قالوا : نعم ، يا اباالقاسم نعينك على ما أحببت ، ثم خلا بعضهم الى بعض ، فقالوا : انكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه ــ وكان الرسول قد جلس الى جانب جدار من بيوتهم ــ فأيكم يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله فيريحنا منه .

فقال عمرو بن جحاش : أنا لذلك ! فصعد ليلقى عليه الصخرة ويبدو أن الرسول الكريم أحس من طول غيبتهم ، ومن كثرة الهمس الذى دار بينهم ، ومما بدا على وجوههم أنهم يكيدون له ويمكرون به . وهتف به هاتف النفس بما دبر القوم . فلم يزد على أن نهض ، ولم يقل لأصحابه شيئا ، وسار كأنه يريد مكانا قريبا ولعله فى قيامه لمح متآمر اليهود يحمل الصخرة ، ويصعد بها الى أعلى الجدار . ولعله سمع أحد عقلاء اليهود ــ سلام بن مشكم ــ يعارض قومه فى تنفيذ هذا الأمر ويلح فى نصحهم بالعدول عنه ويقول لهم :

ــ لا تفعلوا . . والله ليخبرن بما هممتم به وانه لنقض العهد الذى بيننا وبينه . ولسنا نعلم من أمر حامل الصخرة شيئا فلعله جزع وعاد . ولعله نظر فلم يجد الرسول فى مكانه . . ولكنا نعلم أن أصحاب محمد التمسوه . فلما طالت غيبته خفوا سراعا يبحثون

---

(۱) ابن هشام ۳ جـ ۱۹۱ ، الطبرى ۳ ــ ۳٦

عنه ، فلقيهم من قال انه شاهده يدخل المدينة فاسرعوا وراءه حتى انتهوا اليه . فأخبرهم بما دبرت اليهود من الغدر ، ثم قال :

ـ ادعوا الى محمد بن مسلمة . فأتى ، فقال له : اذهب الى يهود فقل لهم : اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

فجاءهم محمد بن مسلمة فقال لهم : ان رسول الله يأمركم ان تظعنوا (١) .

فقالوا : يا محمد ، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس !

فقال : تغيرت القلوب ومحا الاسلام العهود !

فقالوا : نتحمل (٢) . !

ولكن عبد الله بن أبى أرسل اليهم يقول :

ـ لا تخرجوا فان معى من العرب وممن انضوى الى من قومى الفين ، فاقيموا فهم يدخلون معكم ، وقريظة كذلك تدخل معكم .

فبلغ كعب بن أسد القرظى ذلك ، فقال :

ـ لا ينقض العهد رجل من قريظة وانا حى .

فقال رجل منهم لكبيرهم حيى بن اخطب : يا حيى ، اقبل هذا الذى قاله محمد قبل أن تقبل ما هو شر منه ؟ قال حيى : وما هو شر منه ؟ قال : أخذ الأموال وسبى الذرية ، وقتل المقاتلة ، فابى

---

(١) ترحلوا

(٢) نرتحل .

حيى ، وارسل جدى بن اخطب الى الرسول الكريم يقول : انا لا نريم (١) دارنا ، فاصنع ما بدا لك .

فكبر محمد وكبر المسلمون معه ، وقال : حاربت يهود !

وانطلق جدى بن اخطب الى عبد الله بن ابى يستمده فلم يستجب له ، فرجع واخبر حييا بذلك ، فقال : هذه مكيدة !

وزحف اليهم محمد ، وحاصرهم ست ليال فتحصنوا منه فى الحصون ، ولما طال بهم الحصار ، سألوا الرسول الكريم أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الى الحلقة (٢) ، ففعل .

فاحتملوا من اموالهم ما استقلت الابل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به ، فخرج بعضهم الى خيبر ، ومنهم من سار الى الشام (٣) .

وقد غنم المسلمون من بنى النضير مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعا وثلاثمائة واربعين سيفا ، ثم كان ما خلت اليهود من الأرض التى كانوا يملكونها خير ما غنم المسلمون . ولكن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب ، ولذلك لم تقسم بين المسلمين بل كانت لمحمد خاصة يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الاولين دون الانصار بعد أن استبقى قسما خصصت غلته للفقراء والمساكين .

وبذلك أصبح المهاجرون فى غنى عن معونة الانصار واصبح لهم مثل ثروتهم . ولم يشترك فى القسمة من الانصار الا ابو دجانة

---

(١) لا نبرح .

(٢) اسم لجملة السلاح والدروع وما اشبهها .

(٣) نزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .

سماك بن خرشة وسهل بن حنيف فقد ذكرا فقرا فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين . ولم يسلم من يهود بني النضير غير رجلين . فأبقى لهما الرسول الكريم جميع ثروتهما ، ذلك أنه من قال لا اله الا الله فقد عصم نفسه وماله الا بحقه . والله العلى القدير وحده بعد هذا ، يعلم سرائر النفس وما انطوت عليه .

— ٨ —

لم ينس بنو النضير هزيمتهم الساحقة أبدا ، كانوا يضربون فى الصحراء الواسعة العريضة وعيونهم ترنو الى المدينة التى سادوها لبعض الوقت وكدسوا فيها الثروات الهائلة من الربا ، وانشأوا حولها البساتين وملأوها ببيوت اللهو ، واختاروا رجلا من أهلها استعدوا لتتويجه ، ثم أقبل محمد ، فلم يعد فى المدينة ربا ، ولم يعد لهم أقنان يعملون فى البساتين ، ولا بيوت لهو ومتاع .

لم يتخلوا أبدا عن أحلامهم بالعودة الى المدينة ، ليقيموا بها أسواقهم كما كانت من قبل ، وليربحوا من الربا أضعافا مضاعفة وليضعوا التاج على جبين عبد الله بن أبى سلول ! وانطلقوا مع فلول يهود بنى قينقاع : الأحقاد تمور فى الصدور ، وأحلام السيطرة تملأ الرءوس .

وطاف حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق ومعهم من بنى وائل هوذة بن قيس ، وأبو عمار حتى قدموا على قريش فى مكة . فسأل أهلها حييا عن قومه .

فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحابه .

وسألوه عن قريظة فقال : أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد ، حتى تأتوهم فيميلوا معكم . وترددت قريش أتقدم أم تحجم ؟

وقالت قريش وهي تحاور اليهود : يا معشر يهود ، انكم أهل الكتاب الأول وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، افديننا خير أم دينه ؟

قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منــه ! !

وفي موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيتهم على توحيد محمد ، يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون في كتابه « تاريخ اليهود في بلاد العرب » :

« كان من واجب هؤلاء اليهود الا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الجسيم ، والا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الاسلامي ولو أدى بهم الأمر الى عدم اجابة مطلبهم ، لأن بني اسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم باله واحد في عصــور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم الى عبدة الأصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة » .

وقد حقق وفد اليهود ما كان يصبوا اليه ، فاتفق مع قريش على أن يسيروا في يوم معين لمهاجمة المدينة .

واصل وفد اليهود رحلته الى القبــائل يستعديها ويبين خطر الاســلام عليها : فزار قبيلة غطفان ، وقال الواقدي انهم اشتروا مناصرة غطفان لهم بمحصول تمر خيبر مدة سنة . ثم ذهب الوفد الى بني مرة وبني سعد وبني أسد وأشجع وغيرهم من القبائل التي لها عند المسلمين ثأر ، وما زال وفد اليهود بهم يحرضهم على الأخذ

بثارهم ويذكر لهم متابعة قريش اياهم على حرب محمد ، ويحمدون لهم وثنيتهم ، ويعدونهم النصر .

وخرجت الاحزاب التى جمع اليهـود لحرب محمـد والذين معه ؛ خرجت قريش وعلى راسها أبو سفيان فى اربعة آلاف مجند وثلاثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره ، وعقد اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة الذى قتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى معركة أحد ، وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة فى رجال كثيرين وألف بعير ؛ اما اشجع ومرة فجاء كل منها فى اربعمائة محارب ، يتزعم الحارث بن عوف مرة ، ويتزعم مسعد بن رخيلة اشجع ، وجاءت سليم اصحاب بئر معونة فى سبعمائة رجل ، واجتمع هؤلاء وانحاز اليهم بنو سعد واسـد ، فصاروا فى عشرة آلاف رجل او نحوها ، وسـاروا جميعا تحت امرة ابى سـفيان قاصدين المدينة ..

ولـما سمعَ محمـد بقدوم هذا الجيش الضخم الى المـدينة ، استشار ــ كما تعود ــ اصحابه .. فأشار عليه احد المسلمين أن يخرج بجيشه وسينصرهم الله نصرا عزيزا كما نصرهم فى بدر .

واشـار آخـرون أن يعتصموا فى المـدينة ليدافعوا عنها ، فلا يسـتولى الجيش الزاحف على شـبر من الأرض الا على رفات الشهداء .

ورأى محمد أن فى الخروج من المدينة مخاطرة .. فمن يدرى ماذا يمكن أن يفعل عبد الله بن ابى ؟ وهناك ايضا يقيم يهود بنى قريظة .. لا امان لهم ؛ انهم لن يخرجوا معـه الى قتـال الجيش الزاحف ، اذا قرر الخروج ، وقد ينتهزون فرصة خروج الجيش ليدبروا انقلابا فى المدينة ، أو ليحالفوا عبد الله بن أبى ويضعوا على راسه التاج ، ويقيموا له دولة ، فيعود محمد بعد المعـركة ليجد قاعدة انطلاقه قد احتلها الأعداء .

ومع ذلك فلئن اقام فى المدينة والهزم عنها بعض القوات ، لدخل جيش الأحزاب المدينة يقتلون الأطفال ويسبون النساء ويخربون الدور ويحرقون البساتين ستكون مذبحة وحشية يدفع ثمنها الضعفاء .

وظل محمد يفكر فى خطة يدفع بها التيار الماحق الزاحف ، واخيرا تقدم سلمان الفارسى باقتراح أن يخرج كل الجيش الى ظاهر المدينة ، ويتحصن وراء خندق ، ووافق محمد على الفكرة ، وسارع المسلمون الى وضع الخطة موضع التنفيذ . . فحفر الخندق وعمل فيه محمد بيديه ، عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال :

[امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق . قال : عرض لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيه المعاول . قال : فشكونا الى رسول الله صلى الله عليم وسلم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عوف واحسبه قال : وضع ثوبه ثم هبط الى الصخرة فأخذ المعول فقال : « بسم الله » فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : « الله اكبر اعطيت مفاتيح الشام . والله انى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا » ثم قال : « بسم الله » وضرب اخرى فكسر ثلث الحجر ، فقال : « الله اكبر اعطيت مفاتيح فارس والله انى لابصر المدائن وابصر قصرها الأبيض من مكانى هذا » . ثم قال : « بسم الله » وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : « الله اكبر ، اعطيت مفاتيح اليمن والله انى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا (١)]

يا لروعة الموقف الخالد على مر الزمن . . !

مجموعة من الرجال يزحف عليهم الفناء من فوقهم ومن تحت ارجلهم ، وهم جوعى لا يكادون يجدون ما يسد به الرمق ، وهم فى اثوابهم الممزقة التى علاها التراب . . رجال فى هذا الموقف

---

(١) الفتح الربانى جـ ٢١ ص ٧٨

العصيب يقول لهم قائدهم ، انهم عما قريب سيهزمون امبراطورية كسرى وامبراطورية قيصر ، وتدين لهم العرب حتى صنعاء ..!

انه الايمان العميق بالله ، والثقة المطلقة فى الغد ..

وذكر الواقدى ان المسلمين انفقوا فى حفر الخندق اربعة وعشرين يوما ، وفى النووى خمسة عشر يوما ، وفى ابن القيم شهرا ..

ولم تكن متاعب محمد فى حفر الخندق قاصرة على مشقة العمل ، وعلى قلة مؤونة المسلمين ، أو على ترقب ما يأتى به الغد القريب من أحداث ، فحسب ، وانما كانت تتجاوز هذا كله الى مراقبة هؤلاء الذين يتخلفون عن أداء واجبهم ويتسللون الى بيوتهم بغير اذن .

يقول ابن اسحاق :

[وابطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى عملهم ذلك ، رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون [يستترون] بالضعيف من العمل ويتسللون الى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا اذن ، وجعل الرجل من المسلمين اذا نابته نائبة ، من الحاجة التى لابد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستأذنه فى اللحوق بحاجته ، فيأذن له ؛ فاذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله ، رغبة فى الخير ؛ واحتسابا له] .

❋ ❋ ❋

فرغ محمد والمسلمون من حفر الخندق ، فى شهر شوال من العام الخامس الهجرى ، واقبل الجيش الزاحف يريد أن يدمدم الأرض تحت أقدام محمد والذين معه ..

ووقف التاريخ يرقب المشهد المثير الخالد ..

المؤمنون بالله ، وبالحق ، والعدل ، والخير ، والمساواة بين الناس ، وانه لا فرق بين عربى ولا عجمى الا بالتقوى ، يواجهون معركة المصير ضد أعداء الحياة ، الذين يريدون استغلال الانسان ، وأكل الربا ، وتكديس الثروات ، ليظلوا هم السادة ومن عداهم أقنان ..

وقف الجيش الزاحف أمام المدينة ، يصده عنها الأخدود المحفور ؛ وأسرع حيى بن أخطب كبير بنى النضير الى بنى قريظة ، وكانوا لا يزالون على عهدهم مع محمد وطرق باب كبيرهم كعب بن أسد القرظى ، فأدرك كعب مهمة ابن أخطب ، وأغلق دونه بابه ، فناداه حيى : يا كعب ، افتح لى .

قال : ويحك يا حيى ! انك رجل مشئوم ، وانى قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه الا وفاء وصدقا .

قال : افتح لى أكلمك .

قال : ما أنا بفاعل .

قال : ما أغلقت الحصن دونى الا لتخوفك على جشيشتك(١) أن آكل منها معك ! فأحفظ(٢) الرجل ، ففتح ، فقال له :

ـ ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر ، وببحر طام (٣) . جئتك بقريش : قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، قد عاهدونى وعاقدونى على الا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .

---

(١) الجشيشة : طعام يصنع من البر .

(٢) أغضبه

(٣) يريد كثرة الرجال

قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق(١) ؛ فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء . ويحك يا حيى ! دعنى وما أنا عليه ، فانى لم أر فى محمد الا صدقا ووفاء . ولم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب (٢) حتى اعطاه عهدا وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا دخلت معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك .

ونقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم . فلما انتهى الى محمد الخبر ، بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة [اخو بنى الحارث بن الخزرج] وخوات بن جبير [أخو بنى عمرو بن عوف] وقال لهم :

ــ انطلقوا حتى تنظروا : أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا فان كان حقا فألحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وان كانوا على الوفاء بيننا وبينهم فأجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله ، وقالوا : من رسول الله ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد !

فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة ، فقال له سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى(٣) من المشاتمة .

---

(١) الجهام : السحاب الدقيق الذى لا ماء فيه ، وهراق : صب .

(٢) أصل الغارب مقدم السنام ، والذروة أعلاه ، أراد أنه ما زال يخادعه ويتلطفه حتى أجابه .

(٣) أعظم وأكبر .

وعاد الوفد وقال للرسول الكريم كلاما فيه تورية فهم منه أنهم حالفوا الأعداء ، فلم يهن عزم محمد ولم يضعف ، بل زادته هذه المحنة الجديدة قوة ومضاء عزيمة . وقال بصوت كله ثقة وايمان بالله العلى القدير ونصره :

ـ الله اكبر .. ابشروا يا معشر المسلمين .

وبدأ جيش الأحزاب يرمى المسلمين بالنبال والسهام ، وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، فقد أتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن .. ونجم النفاق من بعض المنافقين ، وارتفع صوت من معسكر المسلمين يقول :

[كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط !] .

فلما اشتد على الناس البلاء ، جمع محمد قواده يستشيرهم ، فلقد يرى أن يعمل على تمزيق وحدة الأحزاب ، والحرب خدعة ..

وبدأت السياسة تلعب دورها ، بأن أخذ محمد ، يختبر عود غطفان التى جاءت وهى تطمع فى تمر خيبر مدة عام .

بعث محمد الى عيينة بن حصن ، والى الحارث بن عوف ، وهما قائدا غطفان ـ فعرض عليهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما ، وجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولكن لم تقع الشهادة ، ولا عزيمة الصلح الا المراوضة(١) فى ذلك . وكانت هذه الحركة رائعة وموفقة تماما ، فقد علم محمد عن طريقها مقدار الروح المعنوية التى تسرى فى فريق من أعدائه فاذا هى لا تتجاوز الطمع .

---

(١) المفاوضة ..

وهنا أراد أن يختبر معنوية الأنصار ، وهم أصحاب المدينة الأصليون ، فبعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عباده وذكر لهما ما حدث بينه وبين غطفان ، فقالا له :

ـ يا رسول الله ، أمر تحبه فتصنعه ، أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ؟

قال :

ـ بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك ، الا لانني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم (١) من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم .

فقال سعد بن معاذ :

ـ يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى (٢) أو بيعا ، فحين اكرمنا الله بالاسلام ، وهدانا له واعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ! والله ما لنا بهذا حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فسر محمد من هذا الجواب ، ومن هذه النفس الرفيعة ، والروح القوية المؤمنة .

وقال : فأنت وذاك !

وتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة .

وأقام الرسول والذين معه ، والعدو يحاصرهم ، ولم يكن بينهم

---

(١) اشتدوا عليكم ، وكثر شرهم .

(٢) القرى : ما يقدم للضيف .

قتال ، الا أن فوارس(١) قريش قد تهيئوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة ، فقال :

ــ تهيئوا يا بنى كنانة للحــرب ، فستعلمون من الفرســان اليوم ! !

واقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه ، فلما رأوه قالوا :

ــ والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها !

ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السنجة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تعتق (٢) نحوهم ، فوقف عمرو بن عبدود وقال :

ــ من يبارز ؟

فبرز له على بن أبى طالب وقال له :

ــ يا عمرو ، انك قد كنت عاهدت الله الا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا أخذتها منه .

قال له : أجل .

قال له على : فانى أدعوك الى الله والى رسوله ، والى الاسلام.

قال : لا حاجة لى بذلك .

قال : فانى أدعوك الى النزال .

---

(١) منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب وضرار ابن الخطاب .

(٢) العتق : ضرب من السير السريع .

فقال له : ولم يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك !

قال له على : لكنى والله أحب أن أقتلك .

فحمى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره ، وضرب وجهه ثم أقبل على على ، فتنازلا ، وتجاولا ، فقتله على ، وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وتذكر المسلمون يوم بدر وانتصارهم الرائع الباهر هناك بمثل هذه الأعمال البطولية ، فأمدتهم بالقوة الداخلية الهائلة التى حققت لهم النصر .

ولم يعد جيش الأحزاب يفكر فى عبور الخندق ، وظل فى معسكره دون الخندق يفكر فى طريقة أخرى لهجوم مفاجىء مكتسح ..

ورسم ابو سفيان قائد جيش الاحزاب خطة ماكرة ليوهن من عزيمة جيش محمد ، وهى أن يصب السهام على المسلمين بلا انقطاع ، حتى اذا ما نالوا منهم اجتاز جيش الأحزاب المكان الضيق من الخندق رجلا بعد رجل ، وردموه من أنحاء متفرقة ليعبره الآخرون .

وكان محمد قد أمر جنده الا يبرزوا الا وهم فى دروعهم السابغة ، ولكن سعد بن معاذ برز فى درع لا يقيه كله ، وقد خرج ذراعه منه ، فرماه أحد المشركين بسهم أصابه فقطع عرقا فى ذراعه يسمى الأكحل ، وقد ضمد جرحه ، ودعا الله العلى الكبير بقوله :

[اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، فانه لا قوم أحب الى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه اللهم ان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة] .

وقد اجاب الله دعاءه فظل حيا حتى اشترك فى غزو بنى قريظة وحكم عليهم ثم تحرك عليه جرحه فمات .

وقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود أحد زعماء غطفان فقال :

ـ يا رسول الله ، انى قد أسلمت ، وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت .

فقال الرسول :

ـ انما أنت فينا رجل واحد ، فخذل(١) عنا ان استطعت ، فان الحرب خدعة . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ـ وكان لهم نديما فى الجاهلية ـ فقال :

ـ يا بنى قريظة ؛ قد عرفتم ودى اياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم (٢) عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا مثلكم ، فان رأوا نهزة أصابوها (٣) وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى !

---

(١) اى ثبط من عزيمة القوم .

(٢) عاونتموهم .

(٣) فرصـــة .

ثم خرج حتى قريشا ، فقال لأبى سفيان ومن معه من رجال قريش :

ـ قد عرفتم ودى لكم ، وفراقى محمدا ، وانه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا عنى .

قالوا : نفعل .

قالوا : تعلموا (١) أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه ؛ انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك ان نأخذ من القبيلتين ، من قريش وغطفان ، رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟! فأرسل اليهم : أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحد .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال :

ـ يا معشر غطفان ، انكم أصلى وعشيرتى ، وأحب الناس الى ، ولا أراكم تتهمونى ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم كما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال ، أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان .

فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر (٢) ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونفرغ مما بيننا وبينه ،

---

(١) اعلموا .

(٢) الابل والخيل .

فأرسلوا اليهم : ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فانا نخشى ان ضرستكم (١) الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا (٢) الى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به .

فلما رجعت اليهم الوفود بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :

ــ ان الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق . وارسلوا الى بنى قريظة :

ــ انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت اليهم الوفود بهذا : ان الذى ذكر نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم الا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم .

فأرسلوا الى قريش وغطفان : انا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطوا رهنا . فأبوا عليهم .

وهنا شاعت الفتنة فى معسكر جيش الأحزاب ، وأخذ كل فريق يتهم صاحبه بالغدر والخيانة ، وفترت همتهم جميعا .

---

(١) نالت منكم .

(٢) تسرعوا .

وهبت فى الليل رياح عاصفة مدمرة ، قلبت القدور ، وأطفأت النيران ، واقتلعت الخيام ، فعم اليأس ، وشاع التذمر فى نفس كل فرد من أفراد جيش الأحزاب ، فلما انتهى الى الرسول ما اختلف من أمر جيش الأحزاب ، وما فرق من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه اليهم لينظر ما فعل القوم ليلا .

قال حذيفة :

ـ [لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق ، وقد صلى هويا(١) من الليل ، ثم التفت الينا فقال : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ، فلم يكن بد من القيام حين دعانى ، فقال : يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئا حتى تأتينا .

فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ! لينظر امرؤمن جليسه !

فأخذت بيد الرجل الذى كان الى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : انكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع (٢) والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، لا تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فانى مرتحل .

---

(١) جزء منه .

(٢) الكراع : الخيل .

ثم قام الى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله الا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله الى ، اذ قال لى : لا تحدث شيئا حتى تأتيتى لقتلته بسهم . فرجعت الى رسول الله ؛ وهو قائم يصلى فلما سلم أخبرته الخبر .

وحذت غطفان حذو قريش وتسللت القبائل كل يستتر نفسه بظلام هذا الليل الأسفع الرهيب وينطلق على وجهه من حيث جاء .

وارتفعت من معسكر المسلمين أهازيج النصر .. ووقف محمد ينظر الى وجوه الناس من حوله فى ثقة وايمان بالغد ..

لقد نجا بدعوته والذين آمنوا معه ؛ ان أعداء الحياة الجديدة الطاهرة لن يغزوا المدينة ابدا ، بل ان الجيش الاسلامى سيدخل مكة ويحطم الأصنام ، لتعلو كلمة الله الحق وينتشر الاسلام ويعم نوره كل ركن من أركان العالم .

— ٩ —

انسحب جيش الأحزاب فى الليل ، فلما كان الصباح وأطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم الى مسيره غادر مكانه عند جبل سلع ، وعاد جنده الى المدينة .. وانفق محمد النهار يفكر فى أمر بنى قريظة الذين نكثوا عهده ، وتهيأوا لحربه .

هل كان يمكن أن يترك هؤلاء الخونة بغير عقاب ؟

وهل تكون المدينة آمنة ، مطمئنة ، وهؤلاء اليهود يقيمون غير بعيد عنها ، وتنطوى قلوبهم على الحقد الأسود للاسلام والمسلمين ؟

اجتمع المسلمون عند الظهر فى المسجد ، فأمر الرسول مؤذنا فأذن فى الناس : من كان سميعا مطيعا ، فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة .

وقدم الرسول صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب برايته الى بنى قريظة ، وابتدرها(١) الناس ، وسار على حتى اذا دنا من حصون بنى قريظة سمع منها مقالة قبيحة عن الرسول الكريم ، فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال :

ـ يا رسول الله ، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث .

قال : ولم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟

قال : نعم .

قال : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دنا الرسول من حصونهم ، قال :

ـ يا اخوان القردة ، هل اخزاكم الله وانزل بكم نقمته ؟

قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

ولما أتى الرسول الكريم بنى قريظة نزل على بئر من آبارها يقال لها : بئر أنى . وتلاحق به الناس وحاصرهم الرسول خمسة وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » عن بنى قريظة :

[يبدو أن بنى قريظة كانوا يميلون الى الهدوء والسلم لانهم كانوا رجال فلاحة وزراعة فلم يكونوا فى القوة والبطش والحماسة الحربية بالدرجة التى كان عليها بنو قينقاع وبنو النضير . ومما يؤيد ذلك أن بنى النضير كانوا يدفعون الدية كاملة بخلاف بنى قريظة الذين كانوا يدفعون نصفها فقط .

---

(١) ابتدر القوم أمرا : بادر بعضهم اليه ، أيهم يسبق اليه فيغلب عليه .

ومن أجل ذلك كان العرب ينظرون الى بنى قريظة بعين غير التى كانوا ينظرون بها الى غيرهم من البطون اليهودية الأخرى .

وليس معنى هذا أن بنى قريظة لم تكن لديهم أية كفاءة حربية بل معناه أنهم كانوا أقل من البطون الأخرى فى ذلك ، ومع هذا ابلوا بلاء حسـنا فى يوث بعـاث ، وأبدوا من الشجاعة وقوة العـزيمة ما يستحق الاحترام . وأيضا فانهم منعوا حصنهم خمسا وعشرين ليلة ، ولم ينزلوا الا حين أيقنوا بالهلاك .

على أن الواقدى يصرح بأنه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين اثناء الحصار ، حيث كان الفريقان يتراميان بالنبـل والحجارة . كما يذكر ابن هشام ــ أن بعض الأنصار من الخزرج وبنى الحارثة قتلوا فى هذه المقاتلة الضعيفة ، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام مرة واحدة طول مدة الحصار لأن عدد المسلمين كان يربو على الآلاف (كان ثلاثة آلاف) ، بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز السبع منه الا قليلا] .

وقد أجهد الحصار بنو قريظة ونال منهم ، ولم يغنهم فى مقامهم هذا حيى بن أخطب النضيرى الذى ظل معهم بعد أن حرضهم على قتال محمد مع الاحزاب . ورأى كبيرهم كعب بن أسد بعين السداد والحكمة أن ينصح قومه فخاطبهم بقوله :

ــ يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم .

قالوا : وما هى ؟

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم انه نبى مرسـل ، وأنه الذى تجـدونه فى كتـابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم .

قالوا : لا نفارق حكم التوراة ابدا ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فاذا أبيتم على هذه ، فهلموا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج الى محمد وأصحابه مصلتين (١) سيوفنا ، ونحن لم نترك وراءنا ثقلا (٢) ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وان نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم !

قال : فان أبيتم على هذه فان الليلة ليلة السبت ، وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

قالوا : نفسد علينا سبتنا ، وتحدث فيه ما لم يحدثه من كان قبلنا الا أصابه المسخ ؟

قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما ! !

ثم انهم أرسلوا الى محمد : أن أبعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر (٣) لنستشيره ، فأرسله اليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ، وتجمع حوله النساء والأطفال يبكون ، وقالوا له :

ـ يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

قال : نعم ، ثم خانته فطنته ، وأشار بيده الى حلقه ، وقال :

ـ انه الذبح . أى أن مصيرهم سيكون الذبح .

---

(١) اصلت سيفه : جرده من غمده

(٢) كل شيء نفيس فهو ثقيل

(٣) أخو بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الاوس .

يقول أبو لبابة :

« فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله » .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت الرسول حتى ارتبط فى المسجد الى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكانى هذا حتي يتوب الله على ما صنعت .

وعاهد الله : الا أطأ بنى قريظة أبدا ، ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا .

فلما بلغ الرسول خبره ، وكان قد استبطاه ، قال : أما انه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما اذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

وقد أقام أبو لبابة مرتبطا بالعمود ست ليال ، تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع .

وفى ختـــام هذه المدة كان الرسول فى بيت أم سلمة فنزلت عليه الآية :

[وآخرون اعترفوا بذنوبهم . خلطوا عمـلا صـالحا وآخر سيئا . عسى الله أن يتوب عليهم . ان الله غفور رحيم]

فتبسم الرسول وضحك فقالت له أم سلمة :

ـ مم تضحك يا رسول الله . أضحك الله سنك .

قال : تيب على أبى لبابة .

قالت : قلت : أفلا ابشره يا رسول الله ؟

قال : بلى ، ان شئت .

فقامت ولم يكن الحجاب قد ضرب على نساء الرسول بعد ، فوقفت على باب حجرتها ونادت أبا لبابة قائلة :

ـ يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك .

فسمع المسلمون بالمسجد هذا الخبر ، واندفعوا الى صاحبهم يتسابقون لفك أسره ، فامتنع عليهم قائلا :

ـ لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده .

فلما كانت صلاة الصبح ، خرج الرسول من بيته ومر عليه وأطلق سراحه من العمود الذى شد نفسه عليه ستة أيام .

* * *

المسلمون فى أماكنهم يضيقون الخناق على بنى قريظة ، واذا اليهود قد بلغ منهم اليأس والجهد .

وكان أحدهم ـ عمرو بن سعدى ـ قد كره خيانة قومه للرسول عند تجمع الأحزاب ، وبلغ أمره الرسول ، فنزل فى الليلة الخامسة والعشرين للحصار ، واجتاز أسوار القرية . وكان على حرس المسلمين محمد بن مسلمة ، فرآه وصاح به : من هذا ؟ فانبأه باسمه وعرف منه أنه يريد الفرار من مصير اليهود ، وأنه لا شأن له بخيانتهم . فأخلى كبير الحراس سبيله لينطلق حيث يشاء وهو يقول :

ـ اللهم لا تحرمنى اقالة عثرات الكرام .

فلما كان الصباح أخبر محمد بن مسلمة الرسول بما صنع فلم يمانع وقال :

ـ ذاك رجل نجاه الله بوفائه .

فلما كانت نهاية اليوم الخامس والعشرين ركب على بن أبى

طالب فرسه ومعه الزبير بن العوام ثم صاح على فى المسلمين بأعلى صوته :

ـ يا كتيبة الايمان .

فتلفت نحوه المسلمون وكلهم آذان صاغية فقال :

ـ والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وهجم على الحصن ومعه الفرسان ومن ورائه الجند يكبرون تكبيرة الاسلام فما أن رآهم اليهود من فوق السور حتى سقطت قلوبهم فزعا ورعبا فرفعوا راية التسليم وفتحوا الأبواب ..

فلما رأى الأوس حلفاءهم وقد رفرفت عليهم أعلام الهزيمة تواثبوا الى الرسول وقالوا :

ـ يا رسول الله ، انهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى اخواننا بالأمس ما قد علمت (١) .

فقال الرسول :

ـ الا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟
قالوا : بلى .

قال : فذاك الى سعد بن معاذ .

وقد كان سعد فى خيمة امرأة من المسلمين كانت تداوى الجرحى ، فلما حكمه الرسول فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار وقد وطئوا له بوسادة من أدم ، وأقبلوا به على الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يقولون :

---

(١) سبق أن ذكرنا أن الرسول قد حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله اياهم عبد الله بن ابى سلول فوهبهم له .

ـ يا أبا عمرو ، أحسن فى مواليـــك ، فان محمدا انما ولاك لتحسن فيهم .

فلما أكثروا عليه قال :

ـ لقد انى (جاء الوقت) لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .

فلما انتهى سعد الى الرسول قال لهم : قوموا الى سـيدكم . فقاموا اليه ، ثم قالوا :

ـ ان رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمت ؟

قالوا : نعم .

وقال الرسول : نعم .

ونطق سـعد بحكمه فى صوت ثابت وضمير مستريح ونفس راضية : فانى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء .

لقد أدانهم سعد بنص التـوراة الذى يؤمنون به كما جاء فى التثنية :

[حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصـلح ، فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينـة فغنيمة تغنمها لنفسـك وتأكل غنيمـة أعدائك التى أعطاك الرب الهك (١)]

---

(١) اصحاح ١٠ ـ ١٥ تثنية

ان الحكم الذى أصدره سعد بن معـــاذ فى بنى قريظة عدل وحكمة وصواب ، وما من احد يقضى غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير امة يحميها من غدر أعدائها ، ومن لددهم فى خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر فى التربص والوثبة بعد الوثبة عليها .
وقد قسم الرسول أموال بنى قريظة ونســاءهم وأبنــــاءهم على المسلمين بعـــد أن أخرج منها الخمس . قسمها بأن كان للفارس سهمان ، ولفرسه سهم وللراجل سهم ، وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرسا ، ثم بعث سعد بن زيد الانصارى الى نجد فابتاع خيلا وسلاحا زيادة فى قوة المسلمين .

وقد وطدت غزوة الأحزاب ووطد القضاء على بنى قريظـة للمسلمين فى المدينـــة فلم يبق للمنافقين فيها صوت مسموع . وذهبت العرب كلها تتحدث بقوة المسلمين وبمقام محمد وقوته ، بيد أن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعـــالم بأسره ، فما يزال على محمد والذين معه أن يمهدوا لكلمة الله العلى القدير وأن يدعوا الناس لدينه الحق ، وأن يصدوا عنه كل معتد عليــه ، وهذا ما فعلوا . .

— ١٠ —

بعد هزيمة جيش الأحزاب ، تحددت غايات المدينة السياسية ووضحت قسماتها ومعالمها ، وظهر للرسول أنه لكى يفتح مكة ، لا بد له من التخلص من العدو الغادر وهو اليهود . لقد كان اليهود أشد من قريش عداوة له ، وليس من اليسير أن يوادعهم ، ولا أن يطمئن لهم ، وقد سبقت بينــه وبينهم خصومات لم ينتصروا فى احداها . فما أحراهم ان يثأروا لأنفسهم اذا هم وجدوا من ناحية قريش مؤازرة ومعاضدة ، فتكون أزمة جديدة قد لا تقل عن أزمة الاحزاب خطورة ، ولذلك أخذ محمد يراقب يهود خيبر بعنـاية وحذر فهناك فى هذا الوادى الرائع الجمال تعيش أسطورة غريبة . .

أن بنى اسرائيل حين خرجوا من مصر وعبر بهم موسى عليه السلام البحر ، وضاعوا فى التيه سنوات طويلة لم يجتمع لهم شمل الا فى خيبر ، فلتكن خيبر بحقولها الخصبة قاعدة لليهود الى آخر الزمان ! !

وتحت تأثير هذه الأسطورة الغريبة عاش فى خيبر يهود استقروا جيلا بعد جيل ، واصبحت خيبر مأوى لكل يهودى لا يطمئن به مكانه ، وهكذا لجأ اليها فاول يهود بنى قينقاع وبنى النضير : وانضموا الى سكانها الأصليين ، وأخذوا يعملون على اقامة دولة كبرى تبسط نفوذها وسيطرتها على الجزيرة العربية كلها .

كانت أحلام السيطرة هى التى تحركهم ، ثم الرغبة التى لا تهدأ فى أن ينتقموا من محمد ، انهم الآن يستعدون لقطع الطريق على تجارة المدينة التى بدأت تنمو وتزدهر ، وانهم ليحشدون قواهم ، ليزحفوا فى يوم قريب على المدينة ، واذا كانت قريش قد صالحت الرسول ، فليبحثوا لهم عن حلفاء آخرين .

وهادن الرسول قريشا ، فى الحديبية (١) ، فاطمأن من هذه الناحية وقرر أن يغزو خيبر ، فلم تكن الأنباء التى ترد من هناك تحمل على التريث أو البطء فى أمرهم . فان أحد كبرائهم — سلام ابن مشكم — كان دائم الاتصال بقبائل اليهود فى أقصى الشمال التى تسكن تيماء وفدك وأم القرى ، لكى يتعاونوا معا مع أهل خيبر للزحف على المدينة .

ويرى الدكتور اسرائيل ولفنسون فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب (١) » أن الأسباب التى حملت الرسول على غزو خيبر تتلخص فيما يلى :

---

(١) تحتوى سورة الفتح على الآيات التى تتعلق بيوم الحديبية .

(١) ص ١٦٢

اولا ــ ثاره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين .

ثانيا ــ كانت جموع اليهود فى خيبر من اقوى الطوائف بأسا واوفرها مالا وسلاحا ولم يكن هناك اى أمل فى ان يعتنقوا الدين الاسلامى بعدما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب أن اليهود لن يدخلوا فى الأسلام ، ولما كان الهدف الذى يرمى اليه الرسول انما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد كان محتما عليه فى هذه الحال أن يقضى على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجر عثرة فى سبيل تحقيق ذلك الهدف .

ثالثا ــ لم يجد الرسول قوة تقف فى سبيل نشر دينه الا قوتين اثنتين : قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلوله الجو ويتمكن من نشر دعوته . اما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود .

وليس من شك فى أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم فى تاريخ الفتوح الاسلامية اذ كانت كل القبائل الحجازية تراقب نتيجتها باهتمام بالغ وتنظم شئونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الجيش الاسلامى واليهود . وقد كان أعداء الرسول فى بادية العرب وحاضرتها يعلقون آمالا عريضة على تلك الغزوة .

وقد ارسل يهود خيبر الى غطفان يستمدونهم لانهم كانوا من حلفائهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر ان غلبوا على المسلمين فقبلوا (١)

---

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٤٨ .

ولكن غطفان اخلت بيهود خيبر اذ بعد أن تهيأت غطفان للقتال وظهرت طلائع الجيش الاسلامى دب الخوف فى قلوبهم واستولى عليهم الفزع والهلع فرجعوا على اعقابهم وأقاموا فى أهلبهم وخلوا بين الرسول وبين خيبر (١) .

أما اليهود فانهم بعد أن شاوروا زعيمهم سلام بن مشكم [أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصن الوطيح والسلالم وأدخلوا ذخائرهم فى حصن ناعم وجمع المقاتلة وأهل الحرب فى حصن نطاة (٢)]

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال وكانوا أصحاب سلاح كثير واستخدموا آلات الهدم فى رد الجيش الاسلامى عن آطامهم . والتقى الجمعان حول حصن نطاة ودارت معركة رهيبة ، حتى قيل ان عدد الجرحى من المسلمين فى هذا اليوم بلغ خمسين ، فكم كان اذا عدد الجرحى من اليهود ؟ !

وتوفى سلام بن مشكم ، فتولى الحارث بن أبى زينب قيادة اليهود ، وخرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين ، فدحره بنو الخزرج واضطروه الى أن يرتد الى الحصن .

وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر ، واليهود يقاومون مقاومة شديدة ، وتتابعت الأيام ، فبعث الرسول أبا بكر الصديق براية الى حصن ناعم كى يفتحه ، فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فتح . وبعث الرسول عمر بن الخطاب فى الغداة ، فكان حظه مثل حظ أبى بكر ، فدعا الرسول اليه فى الغداة على بن أبى طالب ثم قال له : « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك » .

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٧١ .

(٢) تاريخ الخميس جـ ٢ ص ٥٠ .

ومضى على بالراية ، فلما دنا من الحصن خرج اليـه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه ، فتناول على بابا كان عند الحصن فتترس به ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ، ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها الى داخل ابنية هذا الحصن .

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعـد قتـال مرير ، وبعد أن قلت المؤونة عندهم قلة توجه بسببها جماعة منهم يشكون الى الرسول أمرهم ، ويطلبون اليه ما يسدون به رمقهم ، فلم يجد شيئا يعطيهم اياه وأذن لهم فى أكل لحوم الخيل (١) .

وبعد أن تم لهم فتح حصن الصعب بن معاذ ، قلت حاجتهم ، اذ وجدوا فيه طعـاما كثيرا مكن لهم من متابعة قتـال اليهود وحصارهم فى سائر حصونهم .

وقد خرج مرحب اليهودى من أحد الحصون وقد جمـع للحرب سلاحه وأكمل عدته وهو يرتجل :

قد علمت خيبـر أنى مرحب   شاكى السـلاح بطل مجرب
أطعن أحيـانا وحينا أضرب   اذا الليـوث أقبلت تحرب (٢)
ان حمـاى للحمى لا يقـرب   يحجم عن صـولتى المجـرب

فصاح محمد بأصحابه : من لهذا ؟

فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر ! قتل أخى بالأمس .

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٧٢ .
(٢) تحرب : تغضب .

وقام اليه باذن محمد وتصاولا حتى كاد مرحب يقتله ، بيد أن مسلمة اتقى سيفه بالدرقة (درع) فوقع السيف فيها فعضت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصـــارهم اياه وقاتلوا حوله قتالا مريرا ، حتى اضطر اليهود الى رفع راية التسليم . وهكذا أخذت الحصون تقع واحدا بعد الآخر فى أيدى المسلمين ، حتى انتهوا الى الوطيح والسلالم بمنطقة الكتيبة وكانا آخر حصنين منيعين لهم . هنالك استولى على نفوسهم اليأس فطلبوا الصلح ، وعفا الرسول عن أهل هذين الحصنين وأمر ان يتركوا أموالهم كلها وسلاحهم وأن يسيروا الى الشام .

وتنقسم حصون خيبر التى دانت للرسول الى قسمين : قسم فتح عنوة ؛ واسر من فيه ورحل أهله من مكانهم ، وقسم عرض الصلح قبـــل الهزيمة ، فأبقاهم محمد يزرعون الأرض لحساب المسلمين . وذلك لأن هـــذه القـــرى قسمت عليهم من مهاجرين وانصار ، وشرط على من يقيم فيها من اليهود الذين عفا عنهم ان يكون لهم نصف الثمار وان يكون للمسلمين من أصحاب الانصبة فى الأرض النصف الآخر .

وقد أصاب سقوط خيبر فى أيدى الجيش الاسلامى بقية قرى اليهود فى فدك وأم القرى وتيماء بزلزال شديد ، فقررت فدك أن تسلم دون قتال ، على أن يكون لها نصف أموالها ، ونصف غلتها كل عام فرضى الرسول .

ولما ذهب محمد بجيشه الى أم القـرى عرض على يهـودها الاسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم الى الليل ثم تصـالحوا وأقامهم الرسول على أراضيهم وذراريهم وأموالهم .

ولما وصل امر خيبر وفدك وام القرى الى يهود تيماء خافوا وقبلوا دفع الجزية (١)

يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون (٢) [وهناك امر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين الغنائم التى غنمها المسلمون فى غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة . فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبى بتسليمها لهم .

ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبى بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ اذ احرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم]

كان اليهود يحسون بمرارة شديدة من الهزيمة التى قضت قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت لهم فى الجزيرة العربية .

وقد ظهرت آثار هذه المرارة فى بعض حوادث حفظتها لنا كتب السيرة ، منها أن زينب ابنة الحارث امراة سلام بن مشكم اهدت الرسول شاة مصلية كانت مسمومة . فتناول الذراع فلاك منها فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد اخذ منها كما اخذ الرسول ، وأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله فلفظها ثم قال : ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم .

ثم دعا بها فاعترفت .

فقال : ما حملك على ذلك ؟

---

(١) تاريخ الخميس : جـ ٢ ص ٦٤ .

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧٠ .

قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبيا فسيخبر .

فعفا عنها الرسول ومات بشر من اكلته التى آكل .

اذن فاليهود قوم غادرون خونة ، لم تجد معهم المعاملة الكريمة التى عاملها بهم الرسول ، وما استطاع الاحسان اليهم اطفاء ما فى صدورهم من لهب الحقد والضغينة ، فبدوا على حقيقتهم منبعا للشغب ومصدرا للاضطراب الدائم ، لا ينقطعون عن الكيد والتآمر ، واستمروا فى كيدهم هذا حتى خلافة عمر بن الخطاب حيث انتهى الأمر بابعادهم عن الجزيرة العربية .

الفصل الخامس

فتح مكة

بعد أن آب محمد الى المدينة بعد ظفره باليهود فى خيبر ، احس بدافع قوى ينزع به الى المضى نحو مكة ..

كان الدافع قويا لا يرد ، ولكنه مكث فى المدينة عدة أشهر ، بيد أنه لم يستطع الى ذلك صبرا ، فلما توافى اليوم الثالث من مارس سنة تسع وعشرين وستمائة للميلاد ، أفضى محمد الى أصحابه بالتأهب ، للمضى نحو مكة ، ونذر ليحجن البيت ويطوفن حوله ، ثم يمشى بعد ذلك حيث أبصر النور ، وأدرك معنى الحياة .

وكان محمد لسنتين خلتا قبل هذا ، قد تعاهد مع قريش عهدا يبيح له مثل هذا الحج ويبرره ، فلما مشى ، مشى معه جمع لجب من أصحابه وأنصاره . فلما سمع أهل مكة بقدومه هالهم الأمر ، وراحوا يتساءلون ماذا عسى أن يحدث ، وما يريد محمد منا .. وفيم جاء محمد الى مكة ؟ وقريش لم تحدث حدثا بعد صلح الحديبية ؟ .

وقد رأى محمد ألا يترك لأهل مكة الفرصة حتى يتجهزوا للقائه . ولئن كان واثقا من قوته ، ومن نصر الله اياه ، لقد كان يرجو أن يبغت القوم فى غرة منهم ، فلا يجدون له دفعا ، فيسلموا من غير أن تراق الدماء .

وبينما كانت كتيبة الايمان على أهبة السير كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بنى عبد المطلب تسمى سارة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا ليقفوا على ما أعد

محمد لهم . وحاطب كان من كبار المسلمين لكن فى النفس الانسانية جوانب ضعف تطغى فى بعض الأحيـــان عليها وتهـــوى بها الى ما لا ترضاه لنفسها . .

وما لبث محمـد ان أحيط بالأمر خبرا ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فأدركا سارة فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا . فأنذرها على ان لم تخرج هذا الكتاب ليكشفنها . فلما رأت المرأة الجد منه قالت : أعرض . فأعرض . فحلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها فرداها الى المدينة .

ودعا محمد حاطبا يسأله ما حمله على ذلك ؟

قال حاطب : يا رسول الله ، اما والله انى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : [دعنى يا رسول الله فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق] .

قال الرسول : « وما يدريك يا عمر لعـــل الله قد اطلع الى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وكان حاطب من أصحاب بدر . واذ ذاك نزل قوله تعالى : [يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة (١) . .]

ورأى العباس بن عبـــد المطلب من جيش محمد ومن قوته ما راعه ؛ وهو وان كان قد أسلم فان ذلك لم يخل قلبه من خشية ما يحل بمكة اذا دهمها هذا الجيش الضخم الذى لا قبل لقــوة فى بلاد العرب به . ولعله أفضى بمخاوفه هذه الى محمد وسأله :

---

(١) سورة الممتحنة : ١

ماذا يصنع اذا طلبت قريش أمانه ؟ ولعل الرسول سر بمفاتحة العباس اياه فى هذا ورجا أن يتخذ منه سفيرا يلقى فى قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك الدماء . وتظل مكة حراما كما كانت وكما يجب ان تكون . وجلس العباس على بغلة الرسول البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأزاك ، لعله يجد حطابا أو صاحب لبن أو أى انسان ذاهبا الى مكة ، يحمله الى أهلها رسالة بقوة جيش محمد ، حتى يخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

وكانت قريش قد بدأت ، منذ نزل المسلمين مر الظهران ، تشعر بأن خطرا يقترب منها ، فأرسلت أبا سفيان بن حرب ، وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام ، يتنطسون الأخبار ، ويستطلعون مبلغ الخطر الذى تحس قلوبها ، وان العباس ليسير على بغلة الرسول البيضاء اذ سمع حديثا بين أبى سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء كذلك يجرى :

ـ أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا .

بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

أبو سفيان : خزاعة أقل واذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وعرف العباس صوت أبى سفيان فناداه بكنيته قائلا : أبا حنظلة ! واجاب أبو سفيان بدوره : أبا الفضل ! . قال العباس : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش اذا دخل مكة عنوة .

قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أمى وأبى .

فأركبه العباس فى عجز البغلة ورد صاحبه الى مكة وسار به .

والناس اذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمر بمن عليها ، فلما مرت بخيمة عمر بن الخطاب ورآها ، عرف أبا سفيان وأدرك ان

العباس يريد أن يجيره ، فأسرع الى خيمة الرسول وطلب اليه أن يضرب عنقه .

قال العباس : انى يا رسول الله قد أجرته .

ازاء هذا الموقف فى تلك الساعة من الليل ، وبعد مناقشة لا تخلو من حدة بين العباس وعمر ، قال محمد : اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به .

فلما كان الصباح وجىء بأبى سفيان فى حضرة الرسول وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار ، جرى الحوار التالى :

محمد : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله .

أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد .

محمد : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .

أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس منها شىء .

فقال العباس : ويلك ! اسلم ، واشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ! . فشهد شهادة الحق .

فقال الرسول للعباس حين تشهد أبو سفيان : انصرف يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله

قال العباس : يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا يكون له فى قومه .

فقال الرسول : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

قال العباس : فخرجت فحبسته عند خطم (١) الجبل بمضيق الوادى . فمرت القبائل على راياتها ، وكلما مرت قبيلة ، قال : يا عباس ، من هذه ؟ فأقول : سليم ! فيقول : ما لى ولسليم ! ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ! فيقول : مالى ولمزينة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيله الا يسألنى عنها ، حتى مر رسـول الله فى كتيبته الخضراء (٢) ، فيها المهـاجرون والأنصار لا يرى منهم الا الحدق (٣) من كثرة الحديد .

فقال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟

قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار .

قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما !

قلت : يا أبا سفيان ، انها النبوة .

فقال : فنعم . اذن !

قلت : الحق بقومك الآن فحذرهم .

انطلق أبو سفيان الى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته : « يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وسار محمد بالجيش ، حتى اذا انتهى الى ذى طوى ، ورأى من هناك مكة لا تقـاوم استوقف كتائبه ، ووقف على راحلته ،

(١) خطم الجبل : مقدمه .

(٢) قيل لها خضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٣) جمع حدقة ، وهى سواد العين .

وانحنى لله شكرا ، أن فتـــح الله عليه مهبط الوحى ومقر البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين .

شكر محمد الله العلى القدير أن فتح عليه مكة ، ولكنه ظل مع ذلك متحذا حذره ، فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق ، وأمرها جميعا ألا تقــاتل والا تسفك دما الا اذا أكرهت على ذلك اكراها واضطرت اليه اضطرارا . وجعل الزبير بن العوام على الجنــاح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها ، وجعل خالد ابن الوليد على الجناح الأيمن وأمره ان يدخل من أسفل مكة . وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينــة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى . أما أبو عبيدة بن الجراح فجعله محمد على المهاجرين،وسار واياهم ليدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبــل هند . وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة .

وفى ذلك من نقض امر الرسول الا يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه . لذلك رأى الرسول حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها الى ابنه قيس .

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة الا جيش خالد بن الوليد . فقد كان يقيم فى هذا الحى من أسفل مكة أشد قريش عداوة لمحمد ، فلما دخلت فرقة خالد أمطروها بنبالهم ، لكن خالدا لم يلبث أن فرقهم وبدد شملهم .

ولما نزل الرسول بمكة ، واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن [1] فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت

---

(1) المحجن : عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير فى يده

له فدخلها . ثم وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد فقام الرسول على باب الكعبة فقال :

[لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا : [يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير] .

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعا ...

ما أجمل العفو عند المقدرة !.. ما أعظم هذه النفس الصافية التى سمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام وبلغت من الصفاء والنبل فوق ما يبلغ الانسان .

هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن عذبوه وأصحابه من قبل ذلك عذابا غليظا ، ومن قاتلوه فى بدر وأحد ومن ألبوا عليه العرب جميعا . هؤلاء قريش فى قبضة محمد ، أمره نافذ فى رقابهم ، وحياتهم جميعا معلقة بين شفتيه ..

لكن محمدا العظيم .. لكن الرسول الكريم ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس .. وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه . فقدر وعفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعا أروع الأمثلة فى البر والوفاء بالعهد وفى سمو النفس سموا لا يبلغه أحد من العالمين .

* * *

اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول على الاسلام فجلس لهم على الصفا ، ولما فرغ الرسول من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع اليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة ، فلما دنون منه ليبايعنه قال الرسول : تبايعننى على الا تشركن بالله شيئا ؟ فقالت هند : والله انك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه !

قال : ولا تسرقن . قالت : والله ان كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة ، وما أدرى أكان ذلك حلالى أم لا ؟

فقال أبو سفيان – وكان شاهدا لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل .

فقال الرسول : وانك لهند بنت عتبة ؟

قالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

قال : ولا تزنين . قالت : وهل تزنى الحرة !

قال : ولا تقتلن أولادكن .

قالت : قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ! فأنت وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب(١) .

---

(١) استغرب فى ضحكه : بالغ فيه .

قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وارجلكن .

قالت : ان اتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : ولا تعصينني فى معروف .

قالت : ما جلسـنا هـذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف .

فقال الرسـول لعمر بن الخطـاب : بايعهن ، واستغفر لهن ؛ فبايعهن عمر ..

لقد آمنت أم القرى ، ورفعت منار التوحيد ولواءه ، وأضاءت العالم خلال القرون بنوره السنى الوضاء .

الفصل السادس

حنين والطائف

سمعت هوازن وكانت تقيم على مقربة من مكة الى جنوبها الشرقى فى جبال هناك ؛ بخروج الرسول من المدينة ، وظنوا أنه يريدهم ، فاجتمعوا له ، فلما أتاهم أنه قد اتجه الى مكة ، وأنه قد فتح الله عليه بها خافوا أن تدور عليهم الدائرة ، وأن يقتحم المسلمون عليهم منازلهم ، ومشت أشراف هوازن وثقيف بعضها الى بعض ، وقالوا : أن محمد قد فرغ لنا ، ولا مانع له دوننا ، فالرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على ذلك(١) . وكان جماع الناس حينئذ الى مالك بن عوف النصرى ، فلما أجمع مالك المسير لقتال المسلمين حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

ونزل بسهل أوطاس ، فاجتمع اليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة ــ وكان شيخا كبيرا ليس فيه شىء الا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ــ فى هودج له يقاد به بعيره . فقال دريد : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل . لا حزن ضرس ، ولا لين دهس (٢) . ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وثغاء الشاء وبكاء الصغير ؟

---

(١) لم يتخلف من هوازن الا كعب وكلاب .

(٢) الضرس : ما خشن من الآكام . والدهس السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملا وليس هو بتراب ولا طين .

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم . فقال : وأين مالك ؟

فدعى له . فقال : يا مالك ، انك قد أصبحت رئيس قومك ، وان هذا يوم له ما بعده من الأيام ؛ ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وثغاء الشاء وبكاء الصغير !

قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم .

قال : ولم ؟

قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وما له ليقاتل عنهم . فأنقض به (١) .

ثم قال : راعى ضأن والله ! هل يرد المنهزم شيء ؟ انها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

واختلف مالك واياه . وتبع النـاس مالـكا ، وكان شابا فى الثلاثين من عمره صلب الارادة ماضى العزيمة ، وتابعهم دريد ما يرد لهم ، على رغم سابقته فى الحرب ، رأيا .

وأمر مالك النـاس أن ينحازوا الى قمم حنين وعنـد مضيق الوادى . فاذا نزل المسلمون واديه فليشدوا عليهم شدة رجل واحد تضعضع صفوفهم ، فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضا وتدور عليهم الهزيمة ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ، ويبقى لقبائل حنين فى بلاد العرب جميعا فخار النصر على هذه القوة التى تريد أن تظل بسلطانها بلاد العرب جميعا . وصدعت القبائل بأمر مالك وتحصنت بمضيق الوادى .

---

(١) أنقض به : نقر بلسان فى فيه كما يزجر الحمار ، فعل ذلك استجهالا له .

ولما سمع بهم الرسول بعث اليهم عبد الله بن أبى حدرد ، وأمره ن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم حتى يأتيه بخبر منهم ، ويعلم علمهم ، فانطلق فدخل فيهم فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب الرسول ، وعلم أمر مالك وهوازن وما هم عليه .

ثم أتى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره خبرهم ، فقال : انتهيت الى خباء مالك بن عوف ، وعنده رؤساء هوازن ، فسمعته يقول : ان محمدا لم يقاتل قوما قط قبل هذه المرة ، وانما كان يلقى قوما أغمارا(١) لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فاذا كان السحر فضعوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا .

ولما أجمع الرسول السير الى هوازن ليلقاهم ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا ــ وهو يومئذ مشرك ــ فأرسل اليه فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدا . فقال صفوان : أغصبا يا محمد ! قال : بل عارية مضمونة حتى تؤديها اليك . قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

ثم خرج الرسول ومعه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفا واستعمل الرسول عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرا على الناس ، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازن .

---

(١) الاغمار : جمع غمر ، بضم أوله ، وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الامور .

سار المسلمون فى هذا الجيش الضخم الذى لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله ، يتقدم كل قبيلة علمها ، وتمتلىء النفوس كلها اعجابا بهذه الكثرة ، وبأن لا غالب اليوم لها ، حتى لقد تحدث بعضهم بذلك الى بعض وجعلوا يقولون : لن نغلب اليوم لكثرتنا .

ولما استقبل المسلمون وادى حنين انحدروا فى واد من أودية تهامة ، وكان القوم قد سبقوهم الى هذا الوادى فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فما راعهم الا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، واستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر .

وانهزم الناس أجمعون ، وأخذ الخوف والفزع منهم كل مأخذ ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح . وقال أبو سفيان بن حرب فى غبطة : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه قد قتل فى معركة أحد . وقال كلدة بن حنبل : الا بطل السحر اليوم ! فرد عليه أخوه صفوان : اسكت فض الله فاك ! فوالله لأن يربنى (١) رجل قريش أحب الى من يربنى رجل من هوازن .

يقع هذا المشهد الرهيب والجيش يختلط حابله بنابله والرسول فى المؤخرة تمر عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مولية الأدبار مهزومة لا تلوى لا شىء .

فى هذا الوقت العصيب ، والموقف العظيم ، ثبت محمد فى مكانه ، وأحاط به جماعة من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته ، وجعل ينادى فى الناس اذ يمرون منهزمين : أين أيها الناس ! بيد

---

(١) ربه : ملكه وساسه .

أن الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون الى شيء ولا يدور بتصورهم الا هوازن وثقيف منحدرتين من معتصمهما بالقمم تطاردانهم حتى تجيئا عليهم ، ولم يخطيء تصورهم ؛ فقد انحدرت هوازن من مكامنها يتقدمها رجل على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدزين من ورائه يطعنون .

وأراد محمد أن يندفع ببغلته البيضاء فى صدر هذا السيل الدافق من رجال العدو ، لكن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخطام بغلته وحال دون تقدمها .

والتفت فرأى أم سليم مع زوجها ، وهى حازمة وسطها ببرد لها ، ومعها جمل زوجها ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، وأدخلت يدها فى خزمته (١) مع الخطام فقال لها الرسول : أم سليم ! قالت : نعم ! بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ؛ كما تقتل الذين يقاتلونك ، فانهم لذلك أهل ! فقال الرسول : أو يكفى الله يا أم سليم ! وقال لها ابو طلحة زوجها : ما هذا الخنجر الذى معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، ان دنا منى أحد من المشركين بعجته به . قال : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء !

وكان العباس بن عبد المطلب رجلا جهورى الصوت قويه ، فنادى بما أسمع الناس جميعا من كل فج : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! ان محمدا حى فهلموا !

---

(١) الخزامة : حلقة من شعر تجعل فى وتر أنف البعير يشد فيها الزمام .

سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمدا وذكروا عهودهم وشرفهم ، وسمع المهاجرون اسم محمد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم . وسمع هؤلاء وأولئك بثبات محمد فى نفر قليل من المهاجرين والأنصار فى وجه هذا الاعصار الزاحف . وصورت لهم نفوسهم ما قد ينتج عن خذلانهم اياه من تغلب المشركين على دين الله الواحد القهار .

وتصايح المسلمون فى صوت واحد : لبيك .. لبيك ! وارتدوا الى المعركة كأقوى وأصلب ما يكون الجند ..

وانحدرت هوازن من مكامنها وأصبحت وجها لوجه مع الكتيبة المؤمنة فى الوادى ، وجعل الأنصار يتصايحون ، يا للأنصار ! ثم تنادوا : يا للخزرج ! ومحمد ينظر الى تناحر القوم ؛ حتى اذا رأى المعركة اشتدت ، ورأى جنده تسمو نفوسهم ويطيحون بخصومهم ، نادى : الآن حمى الوطيس ، ان الله لا يخلف رسوله وعده . ثم طلب الى العباس فناوله حفنة من الحصى ألقى بها فى وجوه العدو قائلا : شاهت الوجوه !

كانت المعركة رهيبة ، أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا ، حتى أن هوازن وثقيفا ومن معهم ما لبثوا ، حين رأوا أن كل مقاومة غير مجدية وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم ، أن فروا منهزمين ، تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم وأبناءهم غنيمة للمسلمين الذين احصوها يومئذ اثنين وعشرين ألفا من الأبل وأربعين ألفا من الشاء وأربعة آلاف أوقية من الفضة . أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين الى وادى الجعرانة حيث أووا الى أن يعود المسلمون من مطاردتهم عدوهم ومن حصار ثقيف بالطائف .

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم . وأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ جمله ، وهو يظن انه امرأة ، وذلك أنه فى

شجار (١) له فاذا برجل . فأناخ به ، فاذا شيخ كبير ، واذا هو دريد بن الصمة ، ولا يعرفه الفتى ، فقال دريد ، ماذا تريد بى ؟ قال : اقتلك ! قال : ومن انت ؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع . ثم ضربه بسيفه فلم يغن فيه شيئا .

فقال : بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فانى كذلك كنت أضرب الرجال . ثم اذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك !

ولما رجع ربيعة الى أمه وأخبرها خبره قالت له : « حرق الله يدك ! انما قال لك ذلك ليذكرنا نعمه عليك . فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات فى غداة : أنا وأمى وأم أبيك » .

وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاسا ، وهناك هزموهم هزيمة نكراء ، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم الى الرسول .

أما مالك بن عوف النصرى فقد ثبت برهة ثم فر وقومه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نخلة ، ثم ولى وجهه نحو الطائف فاحتمى بها .

انتصر المسلمون انتصارا باهرا بفضل ثبات محمد والفئة القليلة التى أحاطت به ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : [لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلن تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على

---

(١) مركب مكشوف دون الهودج .

من يشاء والله غفور رحيم . يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم] .

وقدم فل ثقيف الطائف ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها . وصنعوا الصنائع للقتال ، فسار الرسول حتى نزل قريبا من الطائف ، فضرب به عسكره ، وقتل ناس من أصحابه بالنبل ، ولم يقدر المسلمون أن يدخلوا حائطهم الذى أغلقوه دونهم .

فلما أصيب أولئك النفر بالنبل ، وضع الرسول عسكره عند مسجده الذى بالطائف ، وحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، ثم رماهم بالمنجنيق(١) ودخل نفر من أصحاب الرسول تحت دبابة(٢) . ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا رجالا منهم ، فأمر الرسول بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الى الطائف ، فناديا ثقيفا : أن أمنونا حتى نكلمكم ، فأمنوهما . فدعوا نساء من قريش وبنى كنانة ليخرجن اليهما ، وهما يخافان عليهن الأسر فأبين . فقال لهما ابن الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ، يا مغيرة ، الا أدلكما على خير مما جئتما له ! ان مال بنى الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ، انه ليس بالطائف مال أبعد رشاء(٣) ولا أشد مؤونة ، ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود ، وان محمدا ان قطعه

---

(١) آلة ترمى بها الحجارة فى الحرب .

(٢) الدبابة : آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها

(٣) الرشاء : الحبل .

لم يعمر أبدا . فكلماه فليأخذه أو ليدعه لله والرحم ، فان بيننـا وبينه من القرابة ما لا يجهل . فكلما الرسول فيه فتركه لهم .

ثم ان خويلة بنت حكيم بن أمية امرأة عثمان بن مظعون قالت : يا رسول الله : أعطنى ـ ان فتح الله عليك الطائف ـ حلى بادية بنت غيلان بن مظعون أو حلى الفارعة بنت عقيل ـ وكانتا من أحلى (١) نساء ثقيف .

فقال لها الرسول : وان كان لم يؤذن لى فى ثقيف يا خويلة !

فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على الرسـول ، فقال : ما حديث حدثتنيه خويلة زعمت انك قلته ! قال : قد قلته . قال : أو ما أذن لك فيهم يا رسول الله ! قال : لا . قال : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ قال : بلى ، فأذن عمر بالرحيل .

وانصرف الناس عن الطائف بعد القتـال والحصـار ، وسار الرسول بمن معـه من المسلمين حتى نزل الجعرانة ، وكان سبى هوازن قد قدم اليها .

وأتى الرسول وفد هوازن ، وقد أسلموا : فقالوا : يا رسول الله ؛ انا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البـلاء ما لا يخفى عليك ، فامنن علينا من الله عليك !

وقام رجـل من هوازن ـ أحـد بنى سعد ـ وكان الرسول مسترضعا فى بنى سعد ـ فقال : يا رسـول الله ؛ انما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك ، اللاتى كن يكفلنك ، ولو أننا ملحنا (٢)

---

(١) أى ، أكثرهن حليا .

(٢) ملحنا : أرضعنا .

للحارث بن ابى شمر ، أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته (١) ، وأنت خير المكفولين .

فقال الرسول : أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟

فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا واحسابنا ، بل ترد الينا نساؤنا وأبناؤنا ، فهم أحب الينا .

فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ؛ واذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك واسأل لكم .

فلما صلى الرسول بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول : اما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ! وقال عيينة ابن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ! وقال عباس بن مرداس : أما انا وبنو سليم فلا ! فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله . فقال العباس لقومه : وهنتمونى !

فقال الرسول : أما من تمسك منهم بحقه من هذا السبى ، فله بكل انسان ست فرائض (٢) من أول شيء نصيبه ، فردوا الى الناس أبناءهم ونساءهم .

وقال الرسول لوفد هوازن : ما فعل مالك بن عوف ؟ قالوا : هو بالطائف مع ثقيف .

---

(١) أى فضله .

(٢) جمع فريضة ، وهى البعير المأخوذ فى الزكاة .

فقال : أخبروا مالكا أنه ان أتى مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الابل .

ولما عرف مالك ذلك خرج من الطائف مستخفيا ، فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس فأعد له ، وخرج ليلا على فرسه يركضه حتى أتى راحلته — حيث أمر بها أن تحبس له — فركبها ، ولحق بالرسول . فأدركه بالجعرانة ، فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الابل ، وأسلم فحسن اسلامه ، واستعمله الرسول على قومه ، ومن أسلم من تلك القبائل حول الطائف .

ولما فرغ الرسول من رد سبايا حنين الى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، أقسم علينا فيئنا من الابل والغنم ، حتى ألجئوه الى شجرة ، فاختطفت الشجرة عنه رداءه ، فقال : ردوا على ردائي أيها الناس ! فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما نقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا . ثم قام الى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين اصبعيه ، ثم رفعها فقال :

« أيها الناس ، انه والله ليس لى من فيئكم ولا هذه الوبرة الا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . وطلب الى كل أن يرد ما غنم حتى تكون القسمة العدل .

وأعطى الرسول المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافا من اشراف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .

ولما أعطى الرسول ما أعطى من تلك العطايا ، فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الانصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الانصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة ، وقال بعضهم لبعض : لقد لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يا رسول الله : ان هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت : قسمت فى قومك ، واعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء .

قال الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا الا من قومى .

فقال الرسول : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .

فخرج سعد ، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال :

لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم الرسول ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الانصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، لله ورسوله المن والفضل . ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

قال : اما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة(1) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ! الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم !

---

(1) اللعاعة : الشىء اليسير .

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف الرسول ، وتفرقوا .

وخرج الرسول من الجعرانة معتمرا الى مكة ، فلما قضى عمرته استخلف عتاب بن أسيد على أم القرى ، وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس فى دينهم ويعلمهم القرآن .

وعاد هو والأنصار والمهاجرون قافلين الى المدينة .

الفصل السابع

غـــزوة العسـرة

اقام الرسول بالمدينة ، وذلك فى زمان من عسرة الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقـام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحـال من الزمان الذى هم عليه ... فى هذا الوقت علم الرسول أن الروم قد أعدت جيشا لمحاربته . فلم يتردد هنيهة فى تقـرير مواجهة هذه القوى بنفسه والقضاء عليها .

وكان الرسول قلما يخرج فى غزوة الا كنى عنها ، وأخبر انه يريد غير الوجه الذى يقصد اليه ، الا غزوة العسرة (تعرف بغزوة تبوك) فانه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العـدو الذى يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته .

أمر الرسول الناس بالجهاز ، واخبرهم أنه يريد غزو الروم ، فتجهز الناس على ما فى انفسـهم من الكره لذلك الوجة ، لما عرفوا من مشقة الطريق ، وكثرة الروم وقوتهم ، واثاقل بعض المنافقين ، وعرف الرسول أمرهم .

وفى ذات يوم ـ وهو فى جهـازه ذلك ـ قال للجد بن قيس : يا جـد ، هل لك العـام فى جلاد بنى الأصفر (أى الروم) فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى انه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء منى ، وانى أخشى ان رأيت نساء بنى الأصفر الا أصبر . فأعرض عنه الرسـول . وفيه نزلت هذه الآية :

[ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى الا فى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين (١)] .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحر ، فنزل قوله تعالى :

[وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٢)] .

وانتهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء محمد هذه الفرصة ليزيدوا المنافقين نفاقا ، وليحرضوا الناس على التخلف عن القتال ، هؤلاء لم ير محمد أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم ، ورأى أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، بلغه أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ، يثبطون الناس عن الخروج للغزو ، فبعث اليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم البيت ، فخرب طلحة عش النفاق ، وحرق وكر المنافقين .

وجد الرسول فى التهيؤ للسفر ، وأمر الناس بالجهاز والاسراع فيه ، وحض أهل الغنى على النفقة فى سبيل الله ، ورغبهم فى ذلك ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وانفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها .

وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم الرسول معه ، فحمل منهم من استطاع ، واعتذر الى الباقين وقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا

---

(١) سورة التوبة : ٤٩

(٢) سورة التوبة : ٨١ ، ٨٢

ما ينفقون ، ولبكائهم هـذا أطلق عليهم اسـم البكائين . واجتمع للرسول فى هذا الجيش ، الذى سمى جيش العسرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه ، ثلاثون ألفا من المسلمين .

وأجمع الرسول السـير ، وضرب عسكره على ثنية الوداع ، وسار معه عبد الله بن أبى ، وضرب عسكره قريبا منه ، ولكنه لم يلبث أن تخلف فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب . واستعمل الرسول على المدينة ـ حين خرج الى تبوك ـ سباع بن عرفطة ، وخلف على بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالاقامة فيهم ، فأرجف بذلك المنافقون وقالوا : ما خلفه الا استثقالا له وتخففا منه ، وسمع ذلك على ، فأخـذ سـلاحه وخرج حتى أتى الرسول ، وهو نازل بالجرف ، فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك انما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت منى ، فقال : كذبوا ، ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ الا أنه لا نبى بعدى ، فرجع على الى المدينة ، ومضى الرسول على سفره .

وسـار الجيش حتى بلغ الحجر ، وبها أطلال لمنـازل ثمود ، هنالك أمر الرسول بالنزول فاستقى الناس من بئرها . فلما راحوا قال لهم : لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضأوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفـوه للابل ولا تأكلوا منه شيئا . ولا يخرجن منكم أحد الليلة الا ومعه صاحب له . ذلك أن المكان لم يكن أحد يمر به وكانت تعصف فيه أحيانا عواصف الرمل تطمر الناس والأبل . ولقد خرج رجلان على خلاف أمر الرسـول ، فاحتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال .

فلما أصبح الناس ألفوا هذه الرمال قد طمت البئر فلم يبق بها ماء ، ففزعوا خيفـة الظمأ ، وقدروا مشـقة ما بقى من طول

الطريق . وانهم لكذلك اذ مرت بهم سحابة أمطرتهم فارتووا واصابوا من الماء ما شاءوا .

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدا تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت قد وجهت الى حدودها ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها . فلما انتهى المسلمون الى تبوك وعرف الرسول أمر انسحاب الروم ، وما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه ، وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود . وقد وجه اليه الرسول رسالة أن يذعن أو يغزوه ، فأقبل يوحنا وقدم الهدايا والطاعة وصالح الرسول وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل الجرباء وأذرح (١) وأعطوه الجزية . وكتب الرسول لهم كتب أمن . هذا نص أحدها وهو ما كتب ليوحنا :

[بسم الله الرحمن الرحيم ... هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر] .

لم يبق الرسول فى حاجة الى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمنه عودة الجيوش البزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندى أمير دومة(٢) ، ومعاونته جيوش الروم اذا جاءت

---

(١) جرباء وأذرح ، بالشام

(٢) دومة : هى المعروفة بدومة الجندل ، على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة .

من ناحيته ، لذلك بعث الرسول اليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس ، وقاد بجيشه الى المدينة . وأسرع خالد فهاجم دومة الجندل في غفلة من مليكها الذى خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش . ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، فقتل حسان واخذ أكيدر أسيرا وهدده بالقتل أن لم تفتح دومة ابوابها . وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها .

وقدم خالد بأكيدر على الرسول ، فحقن له دمه ، وعرض عليه الاسلام فأسلم أكيدر .

أقام الرسول بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا الى المدينة . وأقبل حتى نزل « بذى أوان (١) » وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه ، وهو يتجهز الى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، انا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ، وانا نحب ان تأتينا فتصلى لنا فيه .

فقال الرسول : انى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا ان شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

ولما عاد أتاه خبر المسجد وما يراد به من الكيد والأذى فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدى ، وقال : انطلقا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه . فخرجا حتى أتيا رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : انظرنى حتى أخرج اليك بنار من اهلى . ودخل الى اهله ، فأخذ سعفا من النخيل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه . وقد نزل فيهم قوله تعالى :

[والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون]

---

(١) موضع بينه وبين المدينة ساعة من نهار

بغزوة العسرة تمت كلمة الله العلى القدير فى الجزيرة العربية كلها : وامن الرسول كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام ..

لقد كانت حياة محمد . حياة انسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع انسان أن يبلغ ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه الله أن يحاول بلوغ الكمال الانسانى من طريق الايمان العميق والعمل الصالح . وأى سمو فى الحياة كهذا السمو الذى جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل فى الصدق والأمانة ، وعفة اللسان ، وعفة اليد ، وطهارة القلب ، وسمو الروح ، كما كانت بعد الرسالة كلها تضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به .. ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى الصراط المستقيم ..

يقول هـ . ج . ويلز فى كتابه « معالم تاريخ الانسانية » عن الاسلام « انه دين مملوء بروح الرفق والسماحة والأخوة الانسانية » .

ويقول عن محمد انه [أوصل مبادىء الاسلام الجذابة الى سويداء قلوب البشرية دون الاستعانة بالرموز المبهمة]

وعبر العلامة « هل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمات القوية الرائعة :

[ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم . ولكنا لا نعرف فى تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الاسلام ، ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد .

لقد اخرج امة الى الوجود ، ولكن لعبـــادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى]

ويرى برنارد شو أن الامبراطورية البريطانية مقبلة على اعتماد النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن . ويقول : ولو أن محمدا بعث فى هذا القرن وكان له الأمر المطاع ، لوفق كل التوفيق ، فى حل جميع المشاكل العالمية ، ولاستطاع أن يقود الناس الى السعادة والسلام .

فهرس

كتب للمؤلف

الكتاب	الناشر
المجتمع العربى	دار المعارف
العدالة الاجتماعية عند العرب	مكتبة الانجلو المصرية
الفرد والمجتمع فى الاسلام	» » »
المشكلات العالمية المعاصرة	» » »
جنوب الجزيرة العربية	» » »
المغرب الأقصى	» » »
اندونيسيا المعاصرة	» » »
التسلل الاسرائيلى فى أفريقيا	» » »
أورشليم قاتلة الأنبياء	» » »
طريق الانسان العربى الجديد	» » »
الديمقراطية عند العرب	دار احياء الكتب العربية (عيسى البابلى)
الحرية عند العرب	المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية
الجزائر مشكلة دولية	الدار القومية
حق تقرير المصير	» »
مصابيح على الطريق	» »
فى ركب الكفاح	» »
معارك عربية	» »
عمان وامارات الخليج العربى	» »
بترول العرب	» »
ثورة ٢٣ يوليو والحركات التحررية العالمية	» »
قضايا عالمية	» »
الخليج العربى	» »
ميلاد أفريقيا	دار الكرنك للطبع والنشر
المدينة المنورة	دار الشعب

الثمن ١٠ قروش

